المجلد الثامن والعشرون للعام ٢٠٢٤م
حولية كلية اللغة العربية للبنين بجرجا

الأندلس وأدب الرحلات تأثير الأندلس على رحلات المسافرين وأعمالهم الأدبية

Andalusia and travel literature The influence of Andalusia on travelers' travels and literary works

بقلم الدكتورة

خلود ناصر منصور المطيري

أستاذ مساعد بقسم الثقافة الإسلامية والمهارات اللغوية كلية العلوم والآداب
جامعة الملك عبدالعزيز، رابغ ، المملكة العربية السعودية

الترقيم الدولى/ ISSN: 2356 - 9050

العدد الأول من إصدار يونيه ٢٠٢٤م
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٢٠٢٤/٦٩٤٠م

الأندلس وأدب الرحلات
تأثير الأندلس على رحلات المسافرين وأعمالهم الأدبية

خلود ناصر منصور المطيري

قسم الثقافة الإسلامية والمهارات اللغوية كلية العلوم والآداب، جامعة الملك عبدالعزيز، رابغ ، المملكة العربية السعودية

البريد الإلكتروني : knalmatairi@kau.edu.sa

الملخص

اعتاد العلماء المسلمون التنقل بين مراكز العلم في العالم الإسلامي، فنشأ عن هذا التنقل نشاط علمي واسع، أسهم في خلق بيئة ثقافية، ألهمت المؤرخين وأهل التراجم، الذين قاموا برحلاتهم العلمية لاكتساب المعرفة ولقاء العلماء والأدباء، وهذا ما حدث بين المشرق والأندلس والعكس، حيث وجدت بينهما تدفقات علمية غزيرة، وتفاعل علمي ملحوظ، وكانت البلاد الإسلامية وحدة ثقافية واحدة، تتنقل فيها الأفكار والكتب والأشخاص، ومن ثمَّ أثرت رحلات المسافرين إلى الأندلس على وجدان أهل المشرق وإلهامهم الأدبي، وبرز ذلك جليًا في أعمالهم الأدبية: (روايات وقصائد، وكتب رحلات).

وفي هذا البحث تم تحليل الأساليب الأدبية لأدب الرحلات إلى الأندلس وفق أربعة محاور، هي: (الازدهار العلمي بين الأندلس والمشرق وأثره في الأندلس – أثر المشرق الحضاري على الأندلس – أثر الرحلات العلمية في ازدهار الحركة العلمية في الأندلس – الثقافة والعلاقات التجارية للأندلس مع الشرق، وكيف تمثلت الأندلس في خيال الكتّاب، وأثرت على الأنماط الأدبية الشائعة في أعمال المسافرين، وهل كان لديها تأثير على الهياكل السردية، الرموز، أو اللغة المستخدمة في الأعمال الأدبية؟)

وقد توصل البحث إلى مجموعة من النتائج أهمها: إبراز أهمية دور الأندلس في تشكيل تجارب المسافرين وإسهاماتها في إثراء المشهد الأدبي لدى المسافرين على مر العصور من خلال استعراض نظرة شاملة حول التاريخ والثقافة الغنية للأندلس، مع التركيز على المدن البارزة مثل قرطبة وغرناطة، وإيضاح أثر هذه الرحلات على تجارب المسافرين الشخصية، وتأثير ذلك على أعمالهم الأدبية، بدايةً من الأساليب المستخدمة ثم الرموز ومن ورائها المفاهيم المطروحة.

الكلمات المفتاحية: الأدب الأندلسي، أدب الرحلات، رحلات المسافرين، الأعمال الأدبية

Andalusia and travel literature The influence of Andalusia on travelers' travels and literary works

Kholoud Nasser Mansour Al-Mutairi

Department of Islamic Culture and Language Skills, College of Arts and Sciences, King Abdulaziz University, Rabigh, Kingdom of Saudi Arabia.

Email: knalmatairi@kau.edu.sa

Abstract

Muslim scholars used to move between centers of science in the Islamic world, and this movement resulted in broad scientific activity, which contributed to creating a cultural environment that inspired historians and biographers, who undertook their scientific journeys to acquire knowledge and meet scholars and writers, and this is what happened between the Levant and Andalusia and vice versa, where it was found There were abundant scientific flows and notable scientific interaction between them, and the Islamic countries were one cultural unit, in which ideas, books, and people moved. Hence, the travels of travelers to Andalusia influenced the conscience of the people of the East and their literary inspiration, and this was clearly evident in their literary works: (novels, poems, and travel books)

In this research, the literary styles of travel literature to Andalusia were analyzed according to four axes: (the scientific prosperity between Andalusia and the East and its impact on Andalusia - the cultural impact of the East on Andalusia - the impact of scientific trips on the prosperity of the scientific movement in Andalusia - culture and commercial relations of Andalusia with the East, How was Andalusia represented in the imagination of writers, and influenced the literary styles common in the works of travelers, and did it have an impact on the narrative structures, symbols, or language used in literary works?)

The research reached a set of results, the most important of which are: highlighting the importance of the role of Andalusia in shaping travelers' experiences and its contributions to enriching the literary scene among travelers throughout the ages by presenting a comprehensive overview of the rich history and culture of Andalusia, with a focus on prominent cities such as Cordoba and Granada, and clarifying the impact of this. Journeys through travelers' personal experiences, and the impact of this on their literary works, starting with the methods used, then the symbols, and behind them the concepts presented.

Keywords: Andalusian literature - Travel literature - Travelers' trips - Literary works

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

تأثير الأندلس على الرحلات يمثل جزءًا مهما من تاريخ الثقافة والحضارة الإسلامية، فالأندلس هي منطقة في جنوب إسبانيا كانت تحت الحكم الإسلامي لمدة حوالي ثمانية قرون (٧١١-١٤٩٢م)، وقد تركت الحضارة الإسلامية في الأندلس بصمات قوية في مجالات متعددة، وكان لها تأثير كبير على الفنون والعلوم والأدب والهندسة، وبالتالي تركت أثرًا على الرحلات الثقافية والاقتصادية [١].

وكانت الأندلس (أو إسبانيا الإسلامية) منطقة غنية بالثقافة والتبادل الحضاري بين العالم الإسلامي والمسيحي خلال القرون الوسطى، أدت هذه البيئة المتنوعة إلى تدفق الرحلات والسفر بين الأندلس والمناطق المجاورة، وهو ما أثر على الأدب والروايات التي كتبها المسافرون والعلماء الذين زاروا المنطقة، ونستعرض في هذه الدراسة بعض النقاط الرئيسة لتأثير الأندلس على رحلات المسافرين وأعمالهم الأدبية على النحو التالي:

تأثير الأندلس على الأدب الأوروبي: كان للعلماء والمفكرين الأوروبيين الذين زاروا الأندلس تأثير كبير على تطور الأدب الأوروبي، حيث كانت الأندلس مصدرًا مهمًا للمعرفة، خاصةً في مجال العلوم والفلسفة والفنون، فقد كتب العديد من المسافرين الأوروبيين عن تجاربهم في الأندلس، وتأثروا بالثقافة الغنية هناك، حيث كانت الأندلس مركزًا للترجمة، وتُرجمت أعمال الفلاسفة والعلماء المسلمين إلى اللاتينية، ما أثر على النهضة الأوروبية.

تأثير الرحالة المسلمين على الأدب: كتب العديد من الرحالة المسلمين عن رحلاتهم إلى الأندلس، واصفين الثقافة الغنية والتقدم العلمي والتنوع الاجتماعي، ومن هذه الكتب كتاب (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) لابن

(١) مصطفى منجد الأدب الأندلسي، من الفتح حتى سقوط غرناطة: ٢٦٦.

بطوطة، الذي وصف فيه تجربته في الأندلس وتأثره بجمالها وثرائها الثقافي وتعريف العالم الإسلامي على روعة الأندلس وجمالها.

التراث المشترك بين الأندلس والمناطق المحيطة: كان للأندلس تأثير على تطور الأدب في المناطق المجاورة، بما في ذلك شمال إفريقيا والشرق الأوسط، فقد أسهمت التبادلات الثقافية المستمرة بين الأندلس وهذه المناطق في خلق تراث مشترك يؤثر على الأدب والفنون حتى اليوم، فاستُخدمت الأندلس كخلفية للعديد من الأعمال الأدبية والشعرية التي تستعرض جمالها وروعتها.

الأندلس مصدر إلهام للروائيين والشعراء: تأثرت العديد من الروايات والقصائد برومانسية الأندلس وتنوعها، ومن هذه الأعمال البارزة التي كان لها أثر بارز قصائد الشاعر الإسباني (غونزالو دي بيرثيو) الذي استخدم الأندلس كمصدر إلهام لكتابة قصائد تصف الفروسية والعواطف.

دور الأندلس في نقل المعرفة: كانت الأندلس نقطة انطلاق للمعرفة نحو أوروبا عبر كتب الأدب والرحلات، فقد نُقلت العديد من الأفكار والمعارف إلى أوروبا، ما أسهم في تشكيل هوية ثقافية جديدة في المنطقة [١]، بالإجمال فإن دراسة تأثير الأندلس على رحلات المسافرين وأعمالهم الأدبية تسلط الضوء على مدى غنى هذا التقاطع الثقافي وأهميته في تشكيل الأدب العالمي.

ففي مجال العلوم والطب نقل المسلمون في الأندلس الكثير من المعرفة والمؤلفات القديمة اليونانية والرومانية، وقاموا بترجمتها إلى العربية، وهذا أثَّر إيجابًا على التقدم العلمي في العالم الإسلامي وأوروبا، فقد أثَّر تقدُّم الطب في الأندلس – بفضل أعمال العلماء المسلمين الذين كانوا مبدعين في مجالات الطب والجراحة – على تقدم الطب في مختلف أنحاء العالم ،أما بالنسبة للرياضة والترفيه فقد نقل المسلمون في الأندلس العديد من الألعاب الرياضية والأنشطة الترفيهية،

(١) ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس بالقاهرة، ج١ ص٤٤.

وكانوا مهتمين بالرياضة واللياقة البدنية، وهذا التأثير يمكن رؤيته في بعض الألعاب الرياضية التقليدية في المناطق التي كانت تحت السيطرة الإسلامية، أما في مجال الفنون والعمارة:فإن تأثير الأندلس كان كبيرًا، حيث أظهرت المساجد والقصور في الأندلس تقنيات هندسية وفنية رائعة، بعض هذه العناصر الفنية والهندسية تأثرت بشكل واضح في الفنون والعمارة في المناطق الأخرى[1]، كما ازدهر الأدب والشعر في الأندلس، وكتب العديد من الشعراء والكتّاب العلماء العرب في تلك الحقبة، ولا شك أن هذه الأعمال أثرت في تطوير الأدب العربي، وكان لها تأثير مستمر في مجال الأدب، كما كانت الأندلس مركزًا للتبادل الثقافي بين العالم الإسلامي وأوروبا، حيث جذبت الأندلس المفكرين والفنانين من مختلف الثقافات، وهذا التبادل الثقافي أثر على التفاعل الحضاري بين المسلمين والمسيحيين واليهود في تلك الفترة، وقد شكلت الرحلة البحرية الأندلسية ظاهرة أدبية وتاريخية بارزة، إذ كان لاهتمام الأندلسيين بالبحر أبعادٌ مهمة نظرًا لموقع بلادهم كشبه جزيرة تمتد على طول بحر الروم (البحر المتوسط) من الجنوب والشرق، وتطل على بحر الظلمات من الغرب، كما أثر البحر بشكل كبير في حياة الناس في الأندلس، ولعب دورًا رئيسًا في رحلاتهم ومعيشتهم، وفي علاقاتهم مع الشعوب الأخرى خلال العصر الوسيط، لم تقتصر الرحلة الأندلسية على بحر الروم فقط، بل امتدت إلى المناطق المجهولة في أعماق بحر الظلمات، وحتى وصولًا إلى العالم الجديد[2].

ورغم الخوف الذي كان ينتاب الأندلسيين تجاه أخطار المحيط الأطلسي، وتأثير القصص الخيالية على آرائهم وسلوكياتهم، إلا أن ذلك لم يمنع بعض الرحالة من التحدي، واستكشاف هذا العالم، وخلفت رحلاتهم آثارًا اجتماعية واقتصادية وثقافية ونفسية على سكان المغرب والأندلس، يروي (الإدريسي) رحلة الإخوة

(١) المقري: نفح الطيب، ج٢، ص ٧١-٧٢.

(٢) ابن بشكوال: الصلة، ص ٤٥٩-٤٦٠.

المغربيين في القرن التاسع الميلادي، حيث ابتعدوا عن(لشبونة) واجتازوا نهر الوادي الكبير ليمضوا أحد عشر يومًا داخل المحيط حتى وصلوا إلى جزيرة الغنم، حيث رصدوا أعدادًا هائلة من الغنم، تاركين وراءهم أثرًا يُظهر أنهم كانوا أوائل من اكتشفوا الجزيرة، واستمروا في رحلتهم نحو الجنوب حتى وصلوا إلى جزيرة أخرى، وقد كانت الأندلس إحدى أهم المناطق الثقافية في العالم الإسلامي خلال العصور الوسطى، وتركت بصمة عميقة في مجالات متعددة، على المستويين الإنساني والعلمي البحت[١].

وتطورت الحركة الفكرية والنهضة الأدبية في الأندلس حيث سطعت في الأندلس شمس العلم والأدب والفن، وعرفت بلاد الأندلس في مختلف عهودها طائفةً من أعظم المفكرين والأدباء والشعراء والفنانين الذين أسهموا في بناء الحضارة العربية.

ولقد عرفت الحياة الحضارية والفكرية تطورات مختلفة متبعة تطور تاريخ الأندلس السياسي، فقد وصلت هذه الحياة ذروة القوة في عهد الخلافة الأموي، ولما انهارت الخلافة الأموية وسادت الفوضى أرجاءَ الأندلس في عهد الفتنة ذوت الحضارة الأندلسية، وخبت مظاهرها العمرانية والفكرية حتى جاءت دول الطوائف فاستطاعت رغم تطاحنها أن تعيد بهاء الحضارة الأندلسية في قصورها ومنشآتها ومجتمعاتها، وعرفت الأندلس في هذه الحقبة المضطربة من تاريخها طائفة من أعظم مفكريها وأدبائها وشعرائها، أمثال الفيلسوف (ابن حزم، ت-٤٥٦هـ)، والمؤرخ (ابن حيان، ت ٤٦٩هـ)، والشاعر (ابن زيدون، ت ٤٦٢هـ)، والشاعر الأديب (ابن عبدون، ت ٥٢٠هـ) وغيرهم ، بل إن ملوك الطوائف أنفسهم كانوا في طليعة الأدباء والشعراء، كالعالم (عمر بن الأفطس) صاحب بطليوس، و(المعتضد، والمعتمد) صاحبي إشبيلية، و(المعتصم بن صمادح) صاحب المرية[٢]،

(١) الضبي: بغية الملتمس، ص ٨٠-٨٤.

(٢) ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس بالقاهرة، ج١ ص٧٤.

ولكن هذه النهضة الفكرية والأدبية ما لبثت أن توقفت عقب استيلاء المرابطين على الأندلس سنة٤٨٤هـ؛ إذ كان هؤلاء المرابطون شديدي التعصب، قساةً غلاظًا، ألفوا الحرب والخشونة، ولم تجد دولة الفكر والأدب في ظلّهم مرتعاً خصبًا، ومع هذا تألقت في عهدهم القصير بعض الأسماء أمثال الفيلسوف (ابن باجة، والفتح بن خاقان، وابن بسام صاحب كتاب (الذخيرة)، وابن قزمان صاحب الأزجال الشهيرة)، ولكنّ ظهورهم وظهور أمثالهم في هذه الفترة لم يكن إلاّ امتدادًا للنهضة الفكرية التي ازدهرت في عهد ملوك الطوائف.

ثم جاءت دولة الموحدين فانتعشت الحضارة الأندلسية، ونشطت حركة التفكير؛ لأن الموحدين كانوا أكثر انفتاحًا على الفكر من المرابطين، فأُفرج عن كتب الغزالي وغيره من مفكري المشرق، وظهرت في هذه الفترة (أواخر القرن السادس الهجري) أسماء لامعة في الأندلس، من أمثال (ابن الطفيل الإشبيلي، ت ٥٧١هـ) صاحب رسالة حي بن يقظان، والفيلسوف (ابن رشد القرطبي، ت ٥٩٤هـ) (١).

كما ظهر عدد من أعلام الشعر والأدب من أمثال (أبي القاسم خلف بن بشكوال، ت ٥٧٨هـ)، و(ابن بدرون المتوفي في فاتحة القرن السابع) وهو شارح قصيدة ابن عبدون الشهيرة في رثاء بني الأفطس، وازدهرت المعاهد العلمية في أيام الموحدين بالمغرب والأندلس، وكانت المعاهد الأندلسية في (إشبيلية) و(قرطبة) و(غرناطة) و(بلنسية) و(مرسية) يومئذ مجمعَ العلوم والمعارف، ومقصِدَ الطلاب من كل فج، ولما اضمحلّ شأن الموحدين، وضعف أمرهم بالمغرب والأندلس في أوائل القرن السابع الهجري، وبدأت قواعد الأندلس تسقط تباعًا في أيدي الإسبان، شُغلت الأندلس بمحنتها، وانكمشت فنون السلم، واضطربت دولة التفكير والأدب، وقد أثّرت المحنة في نفوس الشعراء فأذكت عواطفهم بشعر اللوعة والأسى،

(١) القِفطي، جمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف ص ١٨٠.

وانجلت الفتن الداخلية والصراع بين إسبانيا المسلمة وإسبانيا النصرانية عن سقوط معظم القواعد الأندلسية بيد الإسبان، وانكمشت الدولة الأندلسية في مملكة غرناطة الصغيرة، وفي ظل هذه المملكة الصغيرة التي قاومت قرنين من الزمن انتعشت الحركة الأدبية بعد أن آنست جوًّا من الطمأنينة والهدوء، ولكن طابع هذه الحركة اقتصر على الشعر والأدب، وبقيت الحياة العقلية في حالة من الركود.

ووجود التيارات الفكرية المتعارضة كان له أثره على النهضة الأدبية، فمثلا عند نشاط التيارات الماجنة تنشط التيارات الإصلاحية، كما كنا نجد في العصر العباسي عندما ظهر (أبو نواس) ظهر (أبو العتاهية) في الوقت نفسه [١].

مشكلة البحث:

يعد تأثير الأندلس على رحلات المسافرين وأعمالهم الأدبية موضوعًا ذا أهمية كبيرة، يفتح أبواب الفهم لتأثير الثقافة والتاريخ على الخيال الإبداعي للكتّاب والمسافرين، ومن ثمَّ تناول هذا البحث أثر الأندلس على تجارب الرحلات والإبداع الأدبي للمسافرين خلال العصور الوسطى، وقد صاغت الباحثة مشكلة البحث الحالي في السؤال الرئيس التالي:

ما مدى تأثير الأندلس على رحلات المسافرين وأعمالهم الأدبية؟

وانبثق من هذا السؤال الرئيس مجموعة من الأسئلة الفرعية تمثلت فيما يل:

- كيفية تأثير رحلات المسافرين إلى الأندلس بالثقافة والتاريخ المحلي؟ وكيف تمثلت هذه التأثيرات في أعمالهم الأدبية؟
- ما العناصر الثقافية الرئيسة التي كانت تلهم المسافرين في الأندلس، وكيف تمثلت هذه العناصر في الأدب الرحلاتي؟
- ما تأثير الأندلس على اللغة والأسلوب الأدبي للمسافرين؟ وكيف تجلى هذا التأثير في أسلوب كتابة رحلاتهم؟

(١) سعد عبد الله البشري: الحياة العلمية في عصر ملوك الطوائف في الأندلس، ص ١٧٨.

- ما أوجه التبادل الثقافي بين المسافرين والمجتمع الأندلسي؟ وكيف تجلى هذا التبادل في الأعمال الأدبية؟
- ما دور الأندلس في تشكيل رؤية المسافرين للعالم الإسلامي بشكل عام؟ وكيف انعكس ذلك في كتاباتهم؟
- ما الاختلافات بين أعمال المسافرين في مراحل زمنية معينة؟ كيف تطورت رؤاهم وأساليب كتابتهم على مر الوقت؟
- كيفية تأثير الأعمال الأدبية للمسافرين بالعوامل الاجتماعية، والسياسية في الأندلس خلال الفترة المدروسة؟
- ما إشارات الأدب الرحلاتي للتنوع الثقافي والديني في الأندلس؟
- ما التأثير الحضاري لبلاد المشرق على الأندلس؟
- ما مدى انتشار الأدب الأندلسي بالمشرق؟

أهداف البحث:

- فهم التأثير الثقافي للأندلس على المسافرين من خلال تحليل كيفية تأثير الثقافة الأندلسية على رؤية المسافرين وتجاربهم الشخصية.
- توضيح كيفية انعكاس هذه التأثيرات في أسلوب كتابتهم وفي محتوى أعمالهم الأدبية.
- دراسة التفاعلات الثقافية واللغوية، حيث تم فحص مدى حدوث تبادل ثقافي بين المسافرين والمجتمع الأندلسي.
- التركيز على كيفية تأثير اللغة الأندلسية والعناصر اللغوية في أعمال المسافرين من خلال تحليل التأثير الأدبي للأندلس، وإبراز كيف أثرت الأندلس على هياكل القصص والأسلوب الأدبي للمسافرين.
- دراسة كيفية تجسيد العناصر الأدبية الأندلسية في أعمال المسافرين، وفحص التأثير الاجتماعي والسياسي بتحليل كيفية تأثير أعمال المسافرين بالظروف

الاجتماعية والسياسية في الأندلس وتوضيح كيف تعامل المسافرون مع القضايا الاجتماعية والسياسية في كتاباتهم.

- ❖ تحديد التطورات عبر الزمن بالمقارنة بين أعمال المسافرين في فترات زمنية مختلفة لفهم كيف تغيرت رؤاهم وأساليبهم مع مرور الوقت، وتحديد الاتجاهات والتطورات في الأدب الرحلاتي المتعلق بالأندلس.
- ❖ تسليط الضوء على التنوع الثقافي والديني من خلال دراسة كيف تجسدت مظاهر التنوع الثقافي والديني في أعمال المسافرين الذين زاروا الأندلس.
- ❖ أثر المشرق الحضاري على الأندلس من حيث التأثير الحضاري لبلاد الشام والحجاز والعراق على الأندلس.
- ❖ انتشار الأدب الأندلسي في الشرق.

محاور البحث:

- **المحور الأول:** الازدهار العلمي بين الأندلس والمشرق وأثره في الأندلس.
- **المحور الثاني:** أثر المشرق الحضاري على الأندلس.
- **المحور الثالث:** أثر الرحلات العلمية في ازدهار الحركة العلمية في الأندلس.
- **المحور الرابع:** الثقافة والعلاقات التجارية للأندلس مع الشرق.

أهمية البحث:

- ❖ إلقاء الضوء على الدور المهم الذي لعبته الأندلس في تاريخ الحضارة الإسلامية، وتأثيرها على التفاعلات الثقافية.
- ❖ تحليل كيف أثرت الرحلات إلى الأندلس على الأعمال الأدبية، ما يسهم في فهم تأثير البيئة الثقافية على الإبداع الأدبي والفني.
- ❖ تسليط الضوء على التفاعلات الثقافية واللغوية بين المسافرين والمجتمع الأندلسي، ما يعزز فهم التبادل الثقافي بين الشعوب والثقافات.
- ❖ تقديم إسهام في دراستي اللغة والأدب الرحلاتي، حيث يسلط الضوء على كيفية تأثير الأماكن على لغة الرحالة وأسلوبهم.

- ❖ فهم كيف تجسد التنوع الثقافي والديني في أعمال المسافرين، ما يسهم في فهم أعظم للتنوع الثقافي والتراث الديني.
- ❖ فهم كيفية تغير أساليب ومواضيع الأدب الرحلاتي عبر الزمن، مع التركيز على الأندلس كمركز للتأثير.
- ❖ توفير مصدر مهم للمهتمين بدراسات الشرق الأوسط والحضارة الإسلامية يسهم في تعزيز التفاهم الثقافي والتبادل الأكاديمي.

مصطلحات البحث:

الأدب الأندلسي: هو التعبير عن التراث الأدبي الذي نشأ في إقليم الأندلس الإسلامي خلال العصور الوسطى، وكان له ميزاته الفريدة التي تعكس الثقافة والتنوع الديني في المجتمع الأندلسي، يشمل (الأدب الشعر والنثر والدراما) وقد أسهم هذا بشكل كبير في التقدم الثقافي والفكري في الأندلس.

أدب الرحلات: هو نوع من الأدب يركز على تسجيل تجارب وملاحظات المسافرين خلال رحلاتهم، ويشمل هذا النوع من الأدب وصفًا للمواقع التي قاموا بزيارتها، والثقافات التي تفاعلوا معها، ويمكن أن يشمل أيضًا تأملات شخصية حول التجارب والانطباعات، يتنوع أدب الرحلات من حيث الأسلوب والغرض، وقد كتب عدة مسافرين على مر العصور أعمالًا تعد روائع في هذا النوع.

رحلات المسافرين: التنقل والسفر البدني أو الروحي للأفراد من مكان إلى آخر، ويمكن أن تكون هذه الرحلات روحية، ثقافية، علمية، تجارية أو أي نوع آخر، وتعد رحلات المسافرين مصدرًا مهمًّا لتوثيق التفاعلات الثقافية، وتأثيرها على الفرد والمجتمع، وهي مصدر غني لأدب الرحلات.

الأعمال الأدبية: الإبداعات الفنية التي تتناول الأفكار والمشاعر بشكل فني، ويمكن أن تكون في شكل شعر، أو رواية، أو قصة قصيرة، أو مسرحية، أو أي شكل آخر من أشكال الأدب، وتتنوع الأعمال الأدبية حسب المواضيع التي تتناولها والأساليب التي تستخدمها، ويمكن أن تكون تعبيرًا عن التأثيرات الثقافية والتجارب الشخصية للكتّاب.

فروض البحث:

صاغت الباحثة فروض البحث فيما يلي:

- ❖ الفرضية الرئيسة :تأثير الأندلس على رحلات المسافرين وأعمالهم الأدبية ظاهرة ثقافية ترتبط بتفاعلات فريدة بين المسافرين والبيئة الأندلسية.
- ❖ الفرضية اللغوية :تفرض أن اللغة الأندلسية وعناصرها اللغوية كانت تلعب دورًا مهمًّا في تشكيل أسلوب كتابة المسافرين والأدب الرحلاتي.
- ❖ فرضية التبادل الثقافي :ترى أن هناك تبادلًا ثقافيًا نشأ بين المسافرين والثقافة الأندلسية، وهو ما أثر في تشكيل الرؤى والأفكار في أعمالهم الأدبية.
- ❖ فرضية التأثير الزمني: تتوقع أن تكون تأثيرات الأندلس متغيرة عبر الزمن، وقد يكون لها تأثير مختلف على أعمال المسافرين في فترات زمنية مختلفة.
- ❖ فرضية التأثير الديني والثقافي: تتجه إلى أن التأثير الثقافي والديني للأندلس سيظهر بوضوح في المواضيع والقضايا التي اختارها المسافرون للكتابة عنها.
- ❖ فرضية التأثير على الأدب الرحلاتي: تتوقع أن تكون التجارب في الأندلس محفزًا لتطوير أساليب الكتابة في الأدب الرحلاتي.
- ❖ فرضية التأثير الاجتماعي والسياسي: تفترض أن الظروف الاجتماعية والسياسية في الأندلس ستتأثر بشكل كبير في أعمال المسافرين وكتاباتهم.

الإطار النظري والدراسات السابقة:

لقد بدأت الأندلس تتصل بالمشرق، وبدأت علوم وآداب المشرق تحمل إلى المغرب عن طريق من وفد من المشرق إلى الأندلس من العلماء والمفكرين، وعن طريق رحلات طلب العلم يقوم بِها عدد من أهالي الأندلس إلى مراكز الإشعاع العلمي في مصر والحجاز والشام والعراق، وتحفل كتب الطبقات والتراجم بأسماء العديد من علماء الأندلس الذين رحلوا إلى المشرق طلبًا للعلم ورغبة في الاتصال بعلماء المشرق الإسلامي [١].

(١) محمد مجيد السعيد، الشعر في عهد المرابطين والموحدين: ص٣٨٠.

المحور الأول: الازدهار العلمي بين الأندلس والمشرق وأثره في الأندلس

أولًا: خلاصه عامة لأشهر السفارات والرحلات

من السفارات الداخلية سفارة محمّد بن مسلم الداني عن إقبال الدولة عليّ بن مجاهد إلى بعض أمراء الطوائف، فكتب رسالة طويلة سمّاها "طيّ المراحل"، اقتضب ابن بسّام بعض فصولها، حيث يصف الطبيعة وما انغمس فيه أمراء الطوائف من تَرَف بالغ، كما يصف دمار قرطبة وما لحق بها من ذلّ وهوان.

أمّا (الإدريسيّ، ٤٩٣-٥٦٠هـ)، فهو من أكبر جغرافيي بلاد المغرب والأندلس، ارتحل رحلة طويلة انتهت به إلى صقلية، فنزل على صاحبها (روجيه الثاني)، ووضع له كتابًا سمّاه: "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق"، وفيه وَصفٌ دقيق للعالمَين الإسلاميّ والمسيحيّ، وهو أصحّ كتاب ألّفه العرب في وصف بلاد أوربة وإيطالية، زوّده (الإدريسي) بواحد وسبعين مصوّرًا، وممّا جاء فيه قوله يصف مدينة طُليطلة: "ولمدينة طُليطلة بساتين محدقة بها، وأنهار جارية مخترقة، ودواليب دائرة، وجنات يانعة، وفواكه عديمة المثال، لا يحيط بها تكييف ولا تحصيل، ولها من جميع جهاتها أقاليم رفيعة، وقلاع منيعة تكنفها[1].

وبرز في القرن السادس (أبو حامد الغرناطي،٤٧٤-٥٦٤هـ) الذي شُغِف بالرحلة فطاف بإفريقية الشماليّة، وصقلية، وزار مصر والشام والعراق، ثم توغّل في بلاد البلغار والصقالبة، وقد سجّل مشاهداته في كتابه: "تحفة الأصحاب ونخبة الأعجاب"، وفيه أَكثَر مِن ذكر الخوارق والخرافات، من ذلك قوله في حديثه عن سمكة: "ولقد حُدِّثت ببلغار أنّ سمكة من تلك السمك في بعض السنين ثقبوا أذنها، وجعلوا فيه حبالًا، وجَرّوا تلك السمكة، فانفتح أذنها، وخرج من داخلها جارية تشبه الآدمية، بيضاء، حمراء الخدَّين، سوداء الشعر، من أحسن النساء، فأخذها أهل يورا وأخرجوها إلى البرّ، وتلك الصورة تضرب وجهها، وتنتف شعرها، وتصيح،

(١)إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين، ص٥٩.

وقد خلق الله لها في وسطها مثلَ جلد أبيض، كالثوب الصفيق القويّ من وسطها إلى ركبتها، يستر عورتها، كأنّه مشدود على وسطها، فأمسكوها حتى ماتَت عندهم"(١).

أما (ابن جُبير، ٥٤٠-٦١٤هـ) فهو الأشهر في عالم الرحلة، وقد ميز رحلته المشهورة بأن جعلها في صورة مذكّرات يوميّة، وكان قد جمعها بعض تلاميذه باسم: "تذكرة بالأخبار عن اتّفاقات الأسفار"، وإنّما نُشرت فيما بعد باسم: "رحلة ابن جبير".

ثم (العبدريّ، ت نحو ٧٠٠هـ) صاحب الرحلة المعروفة باسمه، والتي سجّل فيها مشاهداته في رحلته إلى الحجّ سنة ٦٨٨هـ، وعودته منه، ويليه (ابن رُشَيد السبتي، ت ٦٥٧-٧١١، أو ٧٢١هـ)، الذي رحل إلى مصر والشام والحرمَين سنة ٦٨٣هـ، وصنّف رحلة سماها: "ملء العيبة فيما جُمع بطول الغيبة في الرحلة إلى مكّة وطيبة"، فيها من الفوائد شيء كثير، كما يقول ابن حجر.

ولـ (ابن جابر الوادي آشي ت-٧٤٧هـ) رحلة دوّن فيها ما اكتسبه من الفوائد الأدبيّة أثناء أسفاره الطويلة، ويلقانا من بعده رحالة العصر الغرناطي (القاضي أبو البقاء البلوي - بعد ٧٦٧هـ) صاحب رحلة: "تاج المفرق في تحلية علماء إفريقيا والمشرق"، وفيها سجّل لقاءه بكثير من العلماء وروايته عنهم، وهي كثيرة الفوائد بحسب المقّريّ (٢).

ثم يلقانا (ابن الحاج النميريّ، ت ٧١٣-٧٧٤هـ) صاحب رحلة: "فيض العُباب وإحالة قداح الآداب في الحركة إلى قسنطينة والزاب -ط"، وهي وثيقة تاريخية مهمّة عن فتح بني مرين لقسنطينة وعنّابة وتونس، كتبها ابن الحاج بأسلوب أدبي غلب عليه التكلف في الصياغة.

ولـ (ابن الخطيب، ت ٧١٣-٧٧٦هـ) رحلات بديعة في بلدان الأندلس والمغرب، صوّر فيها أحوال تلك المدن الاجتماعية والثقافية، منها رحلة: "خطرة

---

(١) عبد الله أنيس الطباع: القطوف اليانعة من ثمار جنّة الأندلس الإسلامي الدّانية، ص ١٣٣.

(٢) محمد إبراهيم الفيّومي: تاريخ الفلسفة الإسلامية في المغرب والأندلس، ص ١١٣.

الطيف في رحلة الشتاء والصيف"، وهي رحلته مع الأمير (أبي الحجاج يوسف) في تفقّده لبعض الثغور الشرقية لإمارته، أما رحلته الثانية: "معيار الاختيار في ذكر الأحوال والديار"، التي يسمّيها مقامة، فقد وصف فيها أربعًا وثلاثين مدينة من مدن إمارة غرناطة وبعض مدن الغرب الأقصى، وله رحلة طويلة لم يكتبها سجعًا كما في الرحلتين السابقتين، سماها: "نُفاضة الجراب في عُلالة الاغتراب"، وهي في أربعة أجزاء لم يبقَ منها إلا الثاني.

أما (ابن بطوطة، ت ٧٠٣-٧٧٩هـ) فيُعدّ أعظم رحّالة عرفه العرب في تاريخهم الوسيط، لم يخلّف إلاّ كتاب: (تُحفة النُظّار في غَرائب الأَمصار وعَجائب الأَسفار)، وتُقسم رحلته إلى ثلاث مراحل، استغرقت كلّها نحو ٢٩ سنة، أَطولها الأُولى التي دامت ٢٥ عامًا، زار فيها بلاد مرّاكش، والجزائر، وتونس، ومصر، والحجاز، وفلسطين، ولبنان، وسورية، والعراق، والعجم، والأناضول، وسائر بلاد العرب والهند والصين، وتُعدّ رحلته موسوعة معلومات جغرافيّة، أَبدى فيها صاحبها من دقّة الملاحظة، واتّساع الأفق، واستقلال الحُكم ما يدعو إلى الإعجاب، كما تُعدّ قصص رحلته مِن "أطرف القصص، وأَجزلها نَفعًا؛ لِما فيها من وَصفٍ للعادات والأخلاق، ولِما فيها من فوائد تاريخيّة وجغرافيّة، ومن ضبط لأسماء الرجال والنساء والمدن والأماكن"(١).

ولـ (ابن خلدون، ت ٧٣٢-٨٠٨هـ) كتاب باسم: "التعريف بابن خلدون ورحلته شرقًا وغربًا" يعطينا في تعريفه بنفسه وبرحلته كثيرًا من المعلومات عن عصره والبلدان التي زارها في الأندلس وعلى طول الشاطئ الإفريقي إلى الشام، كما يعطينا كثيرًا من المعلومات السياسيّة والتاريخيّة.

ومن الرحالة أيضًا (القَلْصادي عليّ بن محمد القرشي البَسْطي، ت ٨١٥-٨٩١هـ) له رحلة إلى الحجاز لأداء فريضة الحج، سماها: (تمهيد الطالب ومنتهى

(١) محمد إبراهيم الفيّومي: تاريخ الفلسفة الإسلامية في المغرب والأندلس، ص ١١٣.

الراغب إلى أعلى المنازل والمناقب–ط")، وهي أشبه بكتب الفهرسة والبرامج منها بكتب الرحلات [١].

ثانياً: ارتحال الأندلسيين إلى المشرق

منذ أن دخل الإسلام إلى إسبانيا واستقر الفاتحون بِها بدأ الاهتمام بترسيخ دعائم العقيدة الجديدة في نفوس أهل البلاد، وشعر الفاتحون بالحاجة الماسة إلى التعمق في قضايا التشريع الإسلامي، وما يتعلق منها بمعاملة تلك الطوائف من أهل الذمة، صحيح أنّه كان مع الفاتحين بعض التابعين من الفقهاء، لكن هؤلاء كانوا من القلة بحيث إنّ طاقتهم ومجهودهم العلمي لن يشمل تلك المساحة الشاسعة المفتوحة، هذا بالإضافة إلى ما يتعلق بالدراسات اللغوية والنحوية وعلاقتها بالقرآن الكريم والسنّة الشريفة، ورغبة الأندلسيين في تعميق معارفهم في علوم اللسان، وأخيرًا طموح الأندلسيين للحاق بركب إخوانهم المشارقة الذين سبقوهم إلى طرق ميادين العلوم والمعارف المختلفة، وإحراز مكانتهم الحضارية الراقية، ومن هنا بدأ التفكير في الاستعانة بالمشارقة، فرموا بأبصارهم نحو المشرق، وشدّ كثير منهم رحاله إليه للقاء علمائه وفقهائه، ومن بينهم شيوخ وعلماء المدينة ممن جاوروا مصادر التشريع الإسلامي وأصوله الأولى، فأخذوا عن صحابة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وتابعيهم الكرام، وقد كانت بغداد مركز الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي بما اجتمع فيها من جهابذة العلم والمعرفة في كل علم، وكانت مجمعًا علميًا زاهرًا، بما اجتمع فيها من الأطباء والفلاسفة والأدباء على مختلف مشاربهم وأعراقهم، كالعرب والفرس والهنود والسريان وغيرهم، ولهذا حظيت بغداد باهتمام كبير من علماء الأندلس، وشهدت حركة نشطة في هذه العلوم، فرحل إليها كثير من محدثي الأندلس وفقهائها، مع استمرار الصبغة العلمية والفلسفية غالبة على بغداد[٢].

---

(١) محمد إبراهيم الفيّومي: تاريخ الفلسفة الإسلامية في المغرب والأندلس، ص ١١٦.

(٢) لطفي عبد البديع: الإسلام في إسبانيا، ص ٤٠.

وهناك العديد من الدوافع وراء بدايات رحلات الأندلسيين إلى المشرق تمثلت في الشوق والحنين إلى المشرق العربي مركز القبيلة العربية الأم الذي فيه تاريخها، وميل البيت الأموي في الأندلس إلى بعث ماضي البيت الأموي في دمشق، وسطوته السياسية، وتاريخه الزاهر، وحضارته المجيدة التي أقامها وكانت بالأمس، كما أن أغلب الرحلات إلى المشرق كانت من أجل العلم والدراسة، فقد رحل بعض الأندلسيين إلى المشرق، وندبوا أنفسهم لتحصيل علم من علومه، والتبحّر فيه، منهم من تقصر رحلته فيكتفي بالرحلة إلى المغرب، فإذا زاد شيئًا رحل إلى مصر، ومنهم من له جرأة ومقدرة على الرحلة الطويلة، فيرحل إلى المغرب، ومصر، والشام، والعراق وما إلى ذلك، وهؤلاء الرحّالون كانوا يتبحّرون في علوم مختلفة، فمنهم من يقصد في رحلته الفقه، والتفسير، والحديث، والقراءات، وهم العدد الكثير، ومنهم من رحل يطلب الأخلاق، وعلم السياسة، ومنهم من رحل للتبحّر في النحو والصرف، ومنهم من رحل للتصوف، ومنهم من رحل لطلب الفلسفة والعلوم الدخيلة [1].

وبعض هؤلاء الرحّالين استقرّ في البلد الذي رحل إليه، حيث أعجبه ومن ثمّ لم يعد إلى بلاده، ولكن الأكثر عاد إلى بلاده بعلم أثرى ومعرفة أوسع، وبهذا أثمرت الرحلات العلمية للأندلسيين، وامتلأت الأندلس بآلاف الكتب والمصنفات في مختلف فروع العلم والمعرفة، ونشروا ما تعلموه على أيدي علماء المشرق، ووضعوا أيديهم في أيدي من رحل إليهم من المشرق، وكوّنوا مدرسة واسعة، حدودها حدود الأندلس، فأخذوا يدرِّسون، ويؤلِّفون، ويترجمون، وكانت هذه هي النواة الأولى التي أنتجت العلماء في الأندلس من كل صنف، وبِهذه الطريقة نقلت حضارة الشرق ومدنيته وعلومه وآدابه إلى الأندلس.

(١) علي أدهم: عبد الرحمن الناصر، ص ١٧٥.

إذ كان الارتحال إلى المشرق ولقاء علمائه في مختلف وجوه العلم ينم عن الرغبة في تحقيق النضج العلمي، وترسيخ جذور الشخصية العلمية المتفوقة، وعلى العكس من ذلك كان اكتفاء العالم بلقاء علماء بلده، والاقتصار عليهم دون الرحلة إلى غيرهم من كبار علماء ذلك العصر فيه إشارة إلى ضيق الأفق العلمي، وضعف التطلع والطموح إلى الأفضل والأحسن، حتى إنّ بعض العلماء كان يفخر بكثرة شيوخه وأساتذته، ولهذا يُعاب العالم الذي ليس له رحلة ويوصف بالانقباض عن أهل زمانه من العلماء وأهل المعرفة، وخصوصًا في العصور الأولى للحياة العلمية في الأندلس.

وبناء على هذا فقلما ترى عالمًا من الأندلس لم يرتحل إلى المشرق ويأخذ من علمائه اللهم إلاّ عددًا قليلًا، ومن أشهر العلماء الراحلين إلى المشرق فيما يتصل بعلوم الدين العلامة الفقيه (أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي، ت ٤٧٤هـ/١٠٨١م)، دخل بغداد، وأقام بِها ثلاث سنين، تلقى العلم عن فقهائها ومحدثيها، كأبي الطيب الطبري، وأبي إسحاق الشِّيرازي والصَّيْمَري، وأقام بالموصل حيث لقي هناك أبا جعفر السِّمْناني، وأخذ عنه علم الكلام، وظل يأخذ عن العلماء والفقهاء، وقد مكث على هذا الحال ما يقارب ثلاثة عشر عامًا، ثم عاد إلى وطنه، وقد تضلع من الحديث والفقه وعلم الكلام،

ومن الراحلين إلى المشرق من الأندلس الإمام القاضي (أبو بكر محمد بن عبد الله ابن العربي، ت ٤٦٨ــ٥٤٣هـ/١٠٧٥ــ١١٤٨م) فقيه حافظ عالم متفنن أصولي محدّث مشهور أديب رائق الشعر رئيس وقته، رحل إلى المشرق وكان آنذاك شابًا يافعًا سنّه نحو سبعة عشر عامًا، ورافقه في رحلته والده الذي حرص على أن ينال ابنه مزيدًا من العلم والمعرفة بلقاء علماء مصر والشام والعراق، وقد اكتسب أبو بكر كثيرًا من العلم في رحلته المذكورة، وعاد إلى الأندلس (سنة ٤٩٣هـ) بعد أن مهر في الفقه والحديث وعلوم القرآن، ولما عاد أبو بكر قصده العلماء وطلبة العلم، وأخذوا عنه كثيرًا من علومه ومعارفه، درّس الفقه والأصول،

وجلس للوعظ والتفسير، ومما يذكر عن رحلته العلمية وإقامته في المشرق أنّه كان يحفظ خلال إقامته في العراق في كل يوم سبع عشرة ورقة[١].

وفيما يتصل بعلوم اللغة والنحو، فقد ارتحل (عبد الله بن حمود الزبيدي) إلى المشرق، وكان قد صحب (أبا علي القاليّ) بالأندلس، وأخذ عنه، ثم رحل إلى المشرق، فصحب (أبا سعيد السِّيرافي) إلى أن مات، وصحب (أبا علي الفارسي) في مقامه وسفره إلى فارس وغيرها، وأخذ عنه وأكثر وبرع، ولم يرجع (عبد الله بن حمّود) إلى بلاده، وما زال بالعراق إلى أن مات بِها، وظل عبد الله يتلقى علومه في المشرق، ثم شدّ رحاله إلى وطنه الأندلس عن طريق البحر، ولم يبق بينه وبين الأندلس سوى يوم أو يومين غرقت المراكب وهلك من فيها، ومن بينهم عبد الله، وغرق معه كثير من كتبه التي جلبها إلى العراق[٢].

ولما اتسع مجال النشاط العلمي في الأندلس قصد الراغبون – في دراسة الرياضيات والفلك والطب والكيمياء وغيرها – بغداد ودمشق وغيرها من مراكز الدراسات العلمية البحتة والتجريبية، ومن ميدان العلوم البحتة رحل إلى المشرق العلامة الرياضي (عمرو بن عبد الرحمن الكَرْماني القرطبي) حيث قصد حران فدرس بِها الهندسة والطب، وجلب معه إلى الأندلس رسائل إخوان الصفا، ويعد نقل الكرماني لرسائل إخوان الصفا إلى الأندلس خطوة عظيمة في دفع تيار الدراسات الفلسفية في الأندلس، وتوسيع دائرة البحث فيها.

(١) إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين، ص٦٢.

(٢) مصطفى منجد الأدب الأندلسي، من الفتح حتى سقوط غرناطة: ٢٣٥.

ثالثاً: ارتحال المشارقة إلى الأندلس

وجدير بالذكر أن نشير إلى أنّه إلى جانب ارتحال الأندلسيين إلى المشرق فقد شهدت الأندلس أيضًا موجة معاكسة من ارتحال المشارقة إلى الأندلس، فكان يُدعى قوم من المشرق إلى الأندلس يملؤها أدبًا ولغة، وقد عقد (المقري) فصلًا في كتابه: (نفح الطيب) لمن دخل الأندلس من أهل المشرق، [قدم الأندلس عدد من العلماء، وكان هؤلاء العلماء يرمون من وراء ارتحالهم إلى الأندلس نيل ما يطمحون إليه من منازل رفيعة في بلاطات الملوك][1].

ويأتي في مقدمة هؤلاء العلامة الحافظ (أبو زكريا عبد الرحيم بن أحمد بن نصر التميمي، ت٤٧١ هـ) سمع من علماء وفقهاء كثيرين من مختلف البلدان، ثم رحل إلى الأندلس، وكتب بِها عن شيوخها، وكان يحدث عن مئات من أهل الحديث، وأثنى عليه المقري وقال فيه: (والذي أعتقده أنّه لم يدخل الأندلس من أهل المشرق أحفظ منه للحديث، وهو ثقة عدل ليس له مجازفة، والحق أبلج) وفي هذا العصر دخل الأندلس العلامة (ثابت بن محمد الجرجاني المغامر المشرقي) نزل بالأندلس في سنة (٤٠٦هـ/ ١٠١٥م) وكان فيلسوفًا فلكيًا، ماهرًا في اللغة والأدب وحفظ الشعر الجاهلي والإسلامي، وقد أملى ثابت شرحًا لكتاب الجمل للزجاجي، كما شرح الحماسة لأبي تمام حبيب بن أوس الطائي، ومن هنا يتبين قيامه بدور جيد في ازدهار الدراسات اللغوية والأدبية بما قدمه من شروح لغوية لكتابين مهمين.

(١) إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين، ص٦٦.

المحور الثاني: أثر المشرق الحضاري على الأندلس

أولًا: التأثير الحضاري لبلاد الشام على الأندلس

إن الحضارة الأندلسية لم تنشأ فجأة، بل مرت بأدوار متعددة، وخضعت لمؤثرات حضارية مشرقية تربطها بالوطن الإسلامي الأم باعتبارها جزءًا منه، كما خضعت لمؤثرات حضارية محلية بحكم البيئة التي نشأت فيها، وتاريخ الأندلس في الفترة الأولى وحتى عصر عبد الرحمن الداخل كانت خاضعة للسيادة الأموية سواء في دمشق أو قرطبة، ولهذا كان من الطبيعي أن تتأثر بالحضارة الشامية في جميع مظاهرها، وهذا ما يسمى بالتقليد الشامي.

فمن الناحية الدينية فإن الأندلسيين في هذه الفترة نجدهم قد اغتنموا مذهب (الأوزاعي عبد الرحمن بن يحمد الأوزاعي، ت ٨٨ – ١٥٧)، الذي كان من المجاهدين المرابطين في مدينة بيروت؛ لصد غارات العدو البيزنطي، ولهذا اهتم مذهبه – بصورة خاصة – بالتشريعات الحربية وأحكام الجهاد، وهذا الاهتمام كان يناسب وضع الأندلسيين في هذه الفترة من حياتهم القائمة على حروب الجهاد، ولهذا اعتنقوا هذا المذهب(١).

وقد وجدت عدة روايات مختلفة حول العالم الذي نقل مذهب الأوزاعي إلى الأندلس، فنجد فريقًا يقول: إن (عبد الله صعصعة بن سلام الشامي الأندلسي، ت١٩٢هـ)، وقيل القاضي الغرناطي (أسد بن عبد الرحمن السبئي، ت١٥٠هـ)، وبذلك كانت الفتيا بالأندلس على هذا المذهب في عهد الداخل وبداية عهد ابنه هشام، هذا من الناحية الدينية، أما من الناحية المعمارية فنجد المؤثرات الشامية مقتبسة من المسجد الأموي بدمشق، وذلك عندما أمر الأمير الداخل بتجديد بناء مسجد قرطبة في سنة ١٦٩هـ، وخير دليل على ذلك العقود المزدوجة التي تزيد من ارتفاع السقف، وتجعله ارتفاعًا مناسبًا مع اتساع مساحة المسجد، ويلاحظ هذا التأثير في

(١) لطفي عبد البديع: الإسلام في إسبانيا، ص٧٣- ٧٥.

وضع المئذنة، وفي الممر الذي يصل المسجد بقصر الإمارة وهو المعروف بالساباط، وكذلك بنى الأمير الداخل في شمال غربي قرطبة (قصرًا – بيتا ريفيًّا) على سفح جبل قرطبة سماه قصر الرصافة مقلدًا في ذلك جده – الخليفة (هشام بن عبد الملك) الذي بنى رصافته خارج دمشق في بادية الشام، ولم يلبث أمراء بني أمية في الأندلس أن أخذوا يقلدون الأمير الداخل في اتخاذ القصور الريفية، ومن أمثلة ذلك القصر الذي بناه ابنه (عبد الله) في مدينة (بلنسية)، وأطلق عليه اسم الرصافة[١].

وفي المجال الزراعي نجد أن الأمير الداخل كان حريصًا على جعل قرطبة صورة من دمشق في منازلها البيضاء، ذات الأحواش الداخلية المزينة بالأزهار والورود ونافورات المياه، وكان الأمير الداخل يرسل بعض رجاله إلى المشرق لجلب أشجار الفاكهة من بلاد الشام، فسمع عن أحد رجاله المدعو (سفر بن عبيد الكلاني) الذي تنسب إليه أسماء بعض الفواكه التي غرسها في حياته بكورة رية وأثمرت مثل: الرمال السفري، ثم اهتم بها الأمير الداخل وغرسها في منبته، وانتشرت بذلك زراعتها في سائر أنحاء الأندلس، وبلغ من اهتمامه بالزراعة أنه عندما حل مذهب الإمام مالك محل مذهب الأوزاعي لم يقرر زراعة الأشجار في المساجد في الأندلس.

وفي الحياة الأدبية نجد أن الأندلسيين قد اهتموا بالحياة الأدبية، فالشعر في الأندلس كان يحاكي شعر الفرزدق وجرير بالمشرق، ومن أبرز شعراء الأندلس في هذه الفترة الولاة والأمراء الذين حكموا الأندلس مثل (أبي الخطال بن ضرار الكلبي، والصميل بن حاتم صاحب الوالي يوسف الفهري، والأمير عبد الرحمن الداخل وابنه هشام، ومن ثم الحكم بن هشام)[٢].

---

(١) إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين، ص٥٨.

(٢) سعد عبد الله البشري: الحياة العلمية في عصر الخلافة في الأندلس، ص ٩٧.

التأثير الحضاري بلاد الحجاز على الأندلس

نشأ التأثير الحضاري الحجازي في عهد الأمير هشام والأمير الحكم، لكن هنا سؤال يطرح نفسه هو: ما السبب الذي أدى إلى ضعف التأثير الشامي على الأندلس في هذه الفترة؟ وتتلخص الإجابة في أن (سليمان، وعبد الله) من أولاد عبد الرحمن الداخل قد تمردوا على أخيهم (هشام)، وكان (سليمان) بالذات وراء الحزب الشامي بالأندلس، فلما انتصر (هشام) على أخوته، هربوا إلى شمال إفريقية وضعف الحزب الشامي بالأندلس، فنتج عن ذلك ضعف شأن الحضارة الشامية التي سيطرت على الأندلس، وبذلك تجد الأندلسيين، بخاصة أميرهم يبحثون عن آفاق حضارية جديدة غير الشامية، فوجدوا بغيتهم من حضارة الحجاز[١٠].

أما في المجال العلوم الدينية فقد كانت المدينة المنورة مركزًا للعلوم في هذا القرن، وخاصة مع وجود (مالك بن أنس، ت٢٧٩هـ) صاحب كتاب (الموطأ) – السهل الواضح – وبذلك ظهرت شهرة الإمام (مالك) في العالم الإسلامي فأقبل الأندلسيون على اعتناق مذهبه في عهد الأمير (هشام)، وشاع المذهب المالكي في الأندلس بعد أن استهوى أميرها (هشامًا) والفقهاء رواد الأحاديث، تاركين مذهب الأوزاعي، وتوجد روايات عديدة تؤيد هذا التحول إلى الإعجاب المتبادل بين (مالك) والأمير (هشام)، هذا الإعجاب الذي جسده الفقهاء الأندلسيون تلاميذ (مالك)، دون أن يرى أحدهما الآخر، بالإضافة إلى التعاطف بين الأمير (هشام) و (مالك) الناجم من عداوة الاثنين للعباسيين، إذ ساند (مالك) حركة (محمد النفس الزكية) في المدينة عام ١٤٥هـ ضد الخليفة العباسي (المنصور)، وقد أفتى مالك بجواز تحلل المسلمين من بيعة المنصور، ولذا لقى كبير عناء من العباسيين، وإن كنا ننسى فلا ننسى دور العلماء في الأندلس الذين رحلوا إلى الحجاز ودرسوا في مدرسة الإمام مالك، فنقلوا مذهبه إلى الأندلس، وكان من بينهم (أبو عبيد الله زياد

(١) لطفي عبد البديع: الإسلام في إسبانيا، ص٧٨.

بن عبد الله اللخمي، ت ٢٠٤هـ أو قبلها) الذي كان يعرف بـ (شبطون) والذي أدخل مذهب الإمام مالك إلى الأندلس، وأخذه عنه (يحيى بن يحيى الليثي) عاقل الأندلس، والذي أطلق عليه هذا اللقب هو الإمام مالك، وكان يحيى لا يأخذ إلا عن مالك فقط، وروى عنه الموطأ، وتعد روايته من أصح الروايات، ويليه (عيسى بن دينار) الفقيه المشهور، و(عبد الملك بن حبيب السلمي) الذي أخذ من أصحاب مالك وعاد إلى الأندلس ليدون كتابيه الواضحان (السبب في الشبه بين طبيعة أهل المغرب، وطبيعة أهل الحجاز)، من حيث البساطة والبعد عن التعقيد، وكان من أسباب انتشار المذهب المالكي في المغرب الإسلامي؛ ولهذا فإن عقلية أهل المغرب والأندلس غلب عليها نزعة أهل الحديث، وجانبوا نزعة أهل الرأي وألقيا (مذهب أبي حنيفة)، ولم يقف الأمر عند انتشار المذهب المالكي في الأندلس في هذه الحقبة، بل تعداه إلى انتشار قراءة أهل المدينة للقرآن الكريم، وبالذات قراءة (نافع) قارئ أهل المدينة للقرآن الكريم في الأندلس، وينسب هذا إلى (ابن قيس) الذي أدخل هذه القراءة في عهد الأمير الداخل، وقد امتدح الإمام مالك هذه القراءة، وكذلك قلدت الأندلس الحجاز في تنقيط القرآن الكريم وتشكيله[١].

(١) محمد إبراهيم الفيّومي: تاريخ الفلسفة الإسلامية في المغرب والأندلس، ص ١١٣.

التأثير الحضاري لبلاد العراق على الأندلس

إن التأثير الحضاري العراقي على الأندلس يتطلب عدة أمور يجب القيام بتوضيحها من حيث ازدهار الحضارة في العراق في القرنين الثاني والثالث الهجريين.

حيث كان من أسباب الازدهار رغبة الخلفاء العباسيين في تفوق دولتهم العلمي، وخير دليل على ذلك تشجيعهم لحركة الترجمة، أي: ترجمة كتب الأمم القديمة في الرياضيات والفلك والفلسفة والطب وغيرها إلى العربية، وقد بذلوا جهدًا مضنيًا في هذا المجال، فضلًا عن وجود دليل على ذلك يتمثل في جهد الخلفاء العباسيين: (أبو جعفر المنصور) وكذلك الخليفة (الرشيد والمأمون) وغيرهم في تشجيع الحركة العلمية، وبناء دور الحكمة، مراكز العلم، والإنفاق على العلماء والمترجمين بدون حساب، ونضوج العلوم العربية الدينية، فهذه الحقبة شهدت وضوح مناهج المفسرين للقرآن الكريم، ووضحت الطرق العلمية لتأليف كتب الحديث، ورسوخ أسس مدارس النحو والجغرافيا والتاريخ، وظهور المذاهب الفقهية، هذا في مجال العلوم النقلية، أما ما عرفه المسلمين من معارف الأمم الأخرى في الرياضيات والطب والفلك وغيرها عن طريق الترجمة، فنتج عنه: الإبداع العلمي العربي الازدهار الاقتصادي في العراق؛ إذ كانت هذه الحقبة تمتاز بالنضوج العلمي مع وفرة العلماء الأفذاذ الذين ألفوا وكتبوا بأيديهم في مختلف المجالات(١).

وكل هذا قد انعكست آثاره على المجتمع والحركة العلمية، وخير دليل على ذلك الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور، الذي يعمل على زيادة الثروة، ونماء رؤوس الأموال، واتساع موارد الخراج، والرخاء العام الذي تعددت موارده بين الناس، وقد نهج ابنه المهدي الذي استبدل نظام المقاسمة بنظام المساحة، وقد أشاد

(١) محمد إبراهيم الفيّومي: تاريخ الفلسفة الإسلامية في المغرب والأندلس، ص ١٢٠.

أبو يوسف بهذا النظام، ولعلنا نتصور الحالة الاقتصادية المزدهرة في عهد الخليفة هارون الرشيد، وقد بلغت موارده سنويًا نحو (مائة ألف درهم) من الفضة، و(عشرة آلاف دينار) من الذهب، ولما ازداد تدخل النفوذ التركي وبدا الإهمال نتيجة لهذه السيطرة قام بعض خلفاء هذا العصر، ومنهم الخليفة (المعتضد) بإصلاحات اقتصادية من أجل توفير موارد الدولة، وتهيئة الرخاء لعامة الشعب، كما نمت التجارة وازدهرت في العصرين العباسي الأول والثاني، بعد أن اختلط العرب بغيرهم، ومما ساعد على هذا الازدهار أيضًا بناء مدينة بغداد لجعلها عاصمة العراق ودار الخلافة العباسية(١).

كما كان موقع العراق الاستراتيجي، وكونها المركز التجاري بين الجزيرة العربية والشام والهند ومصر وإيران وآسيا الوسطى، وهيمنتها على الخليج العربي، وقد أسدت الدولة العباسية إلى التطور الصناعي يدًا طولي، حيث أقبلت على التوسع في استخراج الثروة المعدنية التي حفل بها العالم الإسلامي، وإذا أُخذ ما في بغداد نموذجًا لازدهار الناحية الصناعية ودور الصناعات المختلفة، ما بين معامل صناعة الزجاج، ومعامل صناعة الخزف، ومحلات الصياغة الكثيرة التي اشتهر عمالها بالدقة والجودة، وقبل ذلك في العصور الإسلامية الوسطى تجد أنها كانت عاصمة العالم الإسلامي، ومقر الخلافة العباسية، وقد سكنها عناصر مختلفة إسلامية وغير إسلامية، وبذلك أصبحت بغداد تتميز عن غيرها من المدن الأخرى في العلوم والفنون والصناعات المختلفة، وهذا ما ذكرته كتب مثل: (الأغاني، وتاريخ الطبري، وغيرهما) قدمت لنا موضوعات عامة تمثل الحياة الإسلامية بمختلف مظاهرها، وهذه الصفة العالمية التي تميزت بها بغداد جعلتها محط أنظار العرب والمسلمين من جميع أنحاء العالم الإسلامي، كما جعلت حضارتها تطغى على جميع الحضارات الإسلامية الأخرى كالشامية والحجازية(٢).

---

(١) سعد عبد الله البشري: الحياة العلمية في عصر ملوك الطوائف في الأندلس، ص ١١١.

(٢) لطفي عبد البديع: الإسلام في إسبانيا ص ١٠٠.

المحور الثالث: أثر الرحلات العلمية في ازدهار الحركة العلمية في الأندلس

كان هناك تيار علمي زاخر بين المشرق والأندلس تمثل هذا في أفواج العلماء الذاهبة والآيبة بين القطرين، حتى شُبِّه نشاطُهم ذلك بحركة سير النمل في الذهاب والإياب، ولذلك نجد الرحْلة من هنا إلى هناك وبالعكس في تراجم كثير من العلماء، حيث كانت المملكة الإسلامية بالنسبة للعلماء والرحَّالين كرقعة شطرنج، يذهبون فيها ويجيئون، ومثلت البلاد الإسلامية وحدة ثقافية واحدة رغم التجزئة السياسية التي أصابتها وجعلت منها عددًا كبيرًا من الدويلات الهزيلة المنقسمة، وكانت الأفكار والكتب والبضائع والأشخاص تنتقل بحرية تامة، والأغلب أنّ انتقال الكتب كان يتم من الشرق إلى الغرب (أي: إلى الأندلس)؛ حيث كان الشرق في عصوره الأولى على الأقل متقدمًا على الأندلس في التأليف، ولم تكن هناك حدود ولا سدود تفصل أرض المسلمين وإن تشعبت، بل كانت الرحلة دائمة، والأسباب موصولة، ولم يكن الفكر في المشرق بمعزل عن نظيره في المغرب والأندلس، ومن ثم كان التفاعل قائمًا والعطاء متصلًا[1]، فاشتغل الأندلسيون بكتب المشارقة دراسةً وشرحًا ومعارضةً وردًّا واختصارًا، إلى جانب ما ألفوه في شتى العلوم من فقه ولغة ونحو ومعجمات وتاريخ وحديث وكتب في التراجم والدراسات الأدبية، هذا ومن الحق القول: إنه كان للتواصل الثقافي بين المشرق والأندلس أثر كبير في ازدهار الحركة العلمية وتنشيطها، فقد كان أولئك العلماء الراحلون إلى المشرق، والمشارقة الراحلون إلى الأندلس يحملون معهم كثيرًا من العلوم والمعارف المختلفة إلى جانب أعداد كبيرة من المصنفات والتآليف في شتى فروع المعرفة، وكان لهذا اللون من النشاط العلمي ثمرتان مباركتان، هما: ما يحمله العالم في صدره من علم ومعرفة، وما ينقله معه من كتب قيّمة، ومن ثمَّ أخذ الأندلسيون في تلقي تلك العلوم من أفواه العلماء ومن بطون الكتب الواردة إليهم، فازداد النشاط العلمي بصورة سريعة ومتنامية[2].

(١) عبد الله أنيس الطباع: القطوف اليانعة من ثمار جنّة الأندلس الإسلامي الدّانية، ص ١٣٣.
(٢) إبراهيم بيضون، الدولة العربية في إسبانيا، ص ٦٤ – ٦٥.

ثم نشأت طائفة من أهل الأندلس نفسها تؤلف كما ألف أهل المشرق، يتقنون العلم، ويحملون عبء نشره، كـ (ابن عبد ربه المالقي، ت ٣٢٨هـ/٩٤٠م) صاحب (العقد الفريد)، الذي اختار زبدة أدب المشرقيين، واعتمد على كتبهم وخصوصًا كتاب (ابن قتيبة المسمّى) (عيون الأخبار) وبوّبه تبويبًا أشبه بتبويب (ابن قتيبة)، إلاّ أنّه سمّى كل باب بنوع من الأحجار الكريمة وجعله كالقلادة، وكان القصد منه أن ينقل إلى الأندلسيين أدب المشرقيين، وتعريفهم بعلوم المشارقة(١).

وقد احتل (ابن عبد) ربه مكانة مرموقة بين أعلام الأدب العربي عامة؛ بسبب تصنيفه لهذا الكتاب الذي اتبع في وضعه منهاجًا معيناً رسمه في مقدمة الكتاب، هذا وبالرغم من ضخامة الموضوعات التي عرض لها في كتابه لم يبتعد عن الخطوط الرئيسة التي رسمها لنفسه، وقد امتاز كتابه هذا عن كثير من الكتب القديمة بتبويبه، وحسن ترتيبه واختياره، فـ (ابن عبد ربه) كأديب أندلسي كان يدرك – رغم إعجابه بالمشرق وثقافته – أنّ الأندلسيين – وهم في مطلع حياتهم الفكرية – قادرون على أنّ يجاروا أدب المشارقة، وقد أشار إلى هذه الناحية في مقدمة الكتاب بقوله: "وحليت كل كتاب منها بشواهد من الشعر تجانس الأخبار في معانيها، وتوافقه في مذاهبها وقرنت بِها غرائب من شعري؛ ليعلم الناظر في كتابنا هذا أنّ لمغربنا – على قاصيته – وبلدنا – على انقطاعه – حظًا من المنظوم والمنثور"(٢).

ويبدو جليًّا أنّ الكاتب الأندلسي كان يريد أن ينوه إلى أنّ للمغرب العربي – رغم انقطاعه وبعده عن مواطن الثقافة العربية في بغداد ودمشق – له حظ من النتاج الفكري يجاري – إلى حد ما – الأدب العربي في مواطنه الأولى، ونرى فيهم مثل (ابن القوطية، ت ٣٦٧هـ/ ٩٧٧م)، وكنيته تدل على أنّه قوطيّ الأصل؛ إذ

(١) لطفي عبد البديع، الإسلام في إسبانيا، ص ١٤٠.

(٢) عبد الرحمن علي الحجي: التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة ص ٢٠٠.

كانت جدته أميرة قوطية، وقد نبغ في اللغة حتى فاق كثيرًا من المشرقيين، فـــألّف كتاب (الأفعال) وغيره من الكتب التي تدل على علمه وفضله، وأمثاله كثيرون في كل فرع من فروع العلم(١).

وقد تألق بعض العلماء الأندلسيين وأبدعوا، فصنفوا مصنفات قيّمة، منها عدد لا بأس به في نقد بعض النتاج العلمي للمشارقة، وهي ظاهرة تـــدل علـــى نمـــو الشخصية العلمية الأندلسية وتحقيق ذاتها، بسبب هذه الرحلات من الأندلس وإليها، فمنفعة هذه الرحلات أنّها نشرت كثيرا من العلم، وكوّنت علماء نابغين، ووسّـــعت الثقافة بين الأندلسيين، إنّ الرحلات العلمية التي لم تنقطع بين المشرق والأنـــدلس إليها يعود الفضل في ازدهار النشاط العلمي ونُهوضه واتساع التبادل الفكري الذي جنت الحضارة الإسلامية في الأندلس ثماره على نطاق واسع، في مختلف العلـــوم والآداب(٢).

التميّز العلمي للأندلس: كان الأندلسيون قبل عصر الخلافة يحسون بـــنقص، ويشعرون بنوع من التخلف عن المشارقة، ولقد عبّر (ابن بسام) عما كان يعانيـــه الأندلسيون من الناحية النفسية، ذلك الإحساس الذي يكاد يكون مركب نقص عانـــاه الأندلسيون بسبب وضعهم من المشارقة، فالمشارقة أصحاب مهد الثقافة الإسلامية، وبلادهم منبع اللغة العربية، وأقاليمها مصدر الاتجاهات الأدبية، فكل شيء عقدي أو عقلي أو فني يظهر أولًا في المشرق، ويأخذ منه المشارقة ما يشاؤون، ثم يفد بعـــد ذلك على الأندلس؛ وذلك بسبب قرب المشارقة من المصدر، وبعد الأندلسيين عنه، ولهذا كان الأندلسيون يحسون بنوع من التخلف عن المشارقة، ويحاولون دائمًا أن يعوضوا ذلك بتأكيد تفوقهم – رغم بعدهم– وسبقهم – رغم غربتهم–(٣).

---

(١) محمد إبراهيم الفيّومي: تاريخ الفلسفة الإسلامية في المغرب والأندلس، ص ١٠٠.

(٢) ينظر: الضبي: بغية الملتمس، ص ٨٠–٨٤.

(٣) سعد عبد الله البشري: الحياة العلمية في عصر ملوك الطوائف في الأندلس ص ١١٢.

وفي عصر الخلافة بدأ الأندلسيون يتجهون إلى الاعتماد على أنفسهم في بناء كيانهم العلمي، وبذلك أصبحوا في موقف العطاء والبذل العلمي، ولا يعني هذا أنّهم قطعوا علاقتهم بالمشرق، بل ظلوا على اتصال به وبعلمائه، ولكن في صورة أقل مما حدث قبل هذا العصر، فقد نفذ الأندلسيون في عصر الخلافة من دائرة التقليد إلى محيط الإبداع العلمي مع بروز الشخصية العلمية في ميدان الفكر، إنّ ظاهرة اكتمال نمو الشخصية العلمية قد أطلّت برأسها في عصر الخلافة، فقد تحركت تيارات ثقافية منذ عهد الخلافة نحو منازع الاستقلالية(١).

فبعد أن قضت الأندلس ما يقارب ثلاثة قرون في الأخذ عن المشرق والاعتماد عليه نراها بعد هذه المدة قد أحسَّت بالنضج الحضاري، ورأت أن تلتفت إلى نفسها بتعميق معالم شخصيتها العلمية، وإبراز ذاتها بين بقية الأقطار الإسلامية، فبدأت الحركة العلمية الأندلسية تتخذ قالبًا جديدًا وشكلًا مغايرًا لما سبق، فضلًا عن سعيها إلى إثبات ذاتها، واستقلالها الشخصي عن المشرق، فخلال هذه الفترة كثرة الكتابات عن فضل علماء الأندلس ونفاسة نتاجهم العلمي (٢).

فقد ألّف (ابن حزم) رسالة في فضل الأندلس بمثابة ثَبْتٍ تصنيفيٍّ أحصى فيها ثمار الفكر الأندلسي؛ إذ أتى فيها على ذكر المؤلفات الرئيسة التي أسهم فيها الأندلسيون حتى عصره، سواء في العلوم الدينية أو في غيرها، فإنّ ما وصلنا من تآليفهم التي ذكرها في رسالته تؤكد حقيقة ما وصلت إليه الأوضاع العلمية والأدبية في الأندلس من رقي وازدهار وتألّق، كما تبعث على الطمأنينة بصدق كلام (ابن حزم)، وأنّه لم يبالغ في امتداحه لمستوى الحياة العلمية في وطنه، ثم ختم رسالته بعقد مقارنة بين نوابغ العلماء الأندلسيين في حقول المعرفة المختلفة وبين أندادهم من المشارقة، وتعدُّ هذه الرسالة من أعظم شواهد التفوق العلمي للأندلسيين منذ

(١) عبد الرحمن علي الحجي: التاريخ الأندلسي، ص ٣٧١.

(٢) إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين، ص ٦١.

عصر الإمارة إلى عصر المؤلف نفسه، وهي – بلا شك – تعطي دليلًا حاسمًا على نضوج الشخصية العلمية للأندلسيين وتفوقهم(١).

ومن الكتابات التي ألّفت عن فضل علماء الأندلس ونفاسة نتاجهم العلمي، الحركة النقدية التي قام بِها (ابن بسام) في مؤلفه العظيم (الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة)، كما ألّف (ابن بسام) كتابه (المذكور في عصر المرابطين)، فكانت هناك محاولات لتأصيل الوضع الفكري والاستقلالية في الشخصية في الأندلس، والحد من الانحراف في تبعية الأندلس للمشرق، فهي صحوة إلى التقدم الفكري، ولا يعني هذا القول أنّ الأندلس استقلّت استقلالًا تامًا عن المشرق واكتفت ببناء كيانها الحضاري بالاعتماد فقط على أبنائها، بل ظل الاتصال العلمي بالمشرق مستمرًا، رغم أنّ تياره ضعف منذ عصر ملوك الطوائف، وهو أمر طبيعي(٢).

فإن من يتلمس آثار علماء ذلك العصر يلحظ مسحة من النبوغ والتفوق تؤكد النضج العلمي للأندلس، وتثبت اكتمال نمو الشخصية العلمية القادرة على إبراز ذاتِها في الميدان الفكري والمعترك العلمي، كما أن المتتبع لتاريخ الفكر الأندلسي– خلال هذا العصر وما تلاه من عصور– يلمس ظاهرة هجرة العلماء الأندلسيين إلى المشرق، ليس لأخذ العلم، بل لإعطائه وبذله، فبعد أن استقلت الشخصية الأندلسية – من القرن الخامس الهجري (الحادي عشر للميلاد) – عن الشخصية المشرقية أصبحت المصدر الأول لتوجيه الفكر في العالم الغربي، ولا شك بعد ذلك في أنّ الأندلس بلغت ما أرادته لنفسها من الازدهار والتفوق، وبناء صرح متميّز له طابعه الخاص الذي يستمد معالمه وخطوطه من الروح الأندلسية الخاصة(٣).

<u>إسهام العلماء الرحالة في تنشيط تجارة الكتب</u>: من مظاهر التواصل العلمي والثقافي – التي كان لها أثرها في توسّع الثقافة بين الشعب الأندلسي – تجارة

---

(١)إبراهيم بيضون، الدولة العربية في إسبانيا، ص ٧٤.

(٢)خليل إبراهيم السامرائي، وآخرون: تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، ص ٣٢٨.

(٣) الضبي: بغية الملتمس، ص ١٠٥.

الكتب بين الأندلس والمشرق، فإليها يعود الفضل في اتساع التبادل الفكري، فقد أسهم هؤلاء العلماء في تنشيط تجارة الكتب، حتى إن بعض التجار قد لاحظوا إقبالًا كبيرًا على تجارة الكتب، وأنها تأتي منها أرباح مجزية، فجلبوا معهم إلى بلاد الأندلس الكثير من مصنفات أهل المشرق، ومما هو جدير بالاهتمام تتبع رحلة أولئك العلماء الأندلسيين إلى المشرق، ودراسة ما عادوا به معهم من علم وكتب، وتتبع سلسلة الوافدين على الأندلس من المشرق، وتحليل ما جاءوا به معهم من العلم والكتب(١).

لقد شهد المشرق الإسلامي خلال القرون: (الثالث والرابع والخامس للهجرة) تطورًا وازدهارًا حضاريًا وعلميًا كبيرًا شمل العديد من المجالات الثقافية والأدبية، وأزهرت حركة الترجمة عند العرب المسلمين بعد أن أسس الخليفة العباسي (المأمون ١٩٨-٢١٨ هـ/ ٨١٣-٨٣٣ م) بيت الحكمة، واهتم الخلفاء العباسيون بترجمة المصنفات العلمية لمشاهير العلماء اليونان، من أمثال: (أبقراط) و(جالينوس) و(أفلاطون) و(أرسطوطاليس)، وكانوا يبعثون العلماء إلى أوروبا لشراء الكتب وجلبها إلى بغداد؛ الأمر الذي ساعد على نشر الثقافة والعلوم اليونانية بين المسلمين والحفاظ عليها، كما ساعد -كذلك - على تنشيط حركة التبادل الثقافي بين أهل الأندلس وأهل المشرق الإسلامي(٢).

ومن العوامل التي أدت إلى ازدهار تجارة الكتب ورواجها بين المشرق والأندلس: اهتمام الأمراء والخلفاء والميسورين من أهل الأندلس بإنشاء المكتبات العامة والخاصة في القصور والمنازل، وقيل: إنّ مكتبة الخلفاء في إسبانيا بلغ ما فيها ستمائة ألف مجلد، وكان فهرسها أربعة وأربعين مجلدًا، ويعد الخليفة (عبد الرحمن الناصر) من أشهر الأمراء الأمويين الذين اهتموا بجمع الكتب، وشغفوا بها، وبعثوا إلى الأمصار في طلبها، وفي عصره قَدِمَ إلى الأندلس (أبو علي

(١) سعد عبد الله البشري: الحياة العلمية في عصر الخلافة في الأندلس، ص ٩١.

(٢) عبد الله أنيس الطباع: القطوف اليانعة من ثمار جنّة الأندلس الإسلامي الدّانية، ص ١٤٤.

القالي، ت ٣٣٠ هـ/٩٤١م)، وجلب معه كتاب الأمالي، وفي عصره دخلت الكتب الطبية وجميع العلوم من المشرق، كما تشير المصادر إلى اهتمام الخليفة (المستنصر) وعنايته بجمع الكتب وحبه للعلم والعلماء، فقد وفق (المستنصر) في جمع مكتبة غاية في الثراء، حيث كان يبعث في رجالًا من تجار الكتب إلى شتى الأقطار (بغداد والبصرة ومصر وغيرها من ديار المشرق)؛ ليبتاعوا له كل ما تصل إليه أيديهم من الكتب القديمة والحديثة في العلوم المختلفة، فكان (المستنصر) حريصاً على تزويد مكتبته بمختلف المصنفات العلمية من مختلف أنحاء العالم الإسلامي، وبهذه الوسيلة أصبحت مكتبة (المستنصر) شعلة نور يستضيء العالم بأنوارها.

ومن الأمراء الذين اهتموا بجمع الكتب في الأندلس، وشجعوا على جلبها من كل مكان (المظفر أبو بكر محمد بن عبد الله بن مسلمة المعروف بابن الأفطس، ت٤٦٠هـ/١٠٦٨م) صاحب (بَطَلْيوس)، وينقل (المقري) عن (ابن الأبار) أن (المظفر) كان محبًا لأهل العلم، جمَّاعة للكتب، ذا خزانة عظيمة[١].

<u>أشهر الكتب المشرقية التي دخلت إلى الأندلس</u>: من أشهر المصنفات المشرقية التي انتقلت إلى بلاد الأندلس "رسائل أخوان الصفا" على يد (أبي الحكم الكرماني ٤٥٨هـ/١٠٦٥م) من أهل قرطبة، ويشير (أبو حيان، ت ٤٦٩ هـ /١٠٧٦م) إلى عدد من الكتب التي أدخلها (بقي بن مخلد، ت ٢٧٦ هـ /٨٩٩م)، منها كتاب (الفقه) لـ (الشافعي)، وكتاب (التاريخ) لـ (خليفة بن خياط)، وكتابه (الطبقات) وكتاب (سيرة عمر بن عبد العزيز) لـ (الدورقي)، ويذكر (ابن الفرضي) أن (وهب بن نافع، ت ٢٧٣ هـ /٨٨٦ م)، أول من أدخل كتب (أبي عبيد) إلى الأندلس، ثم أدخلها (الخشني) بعده، ومن نفائس المصنفات الفقهية التي وصلت إلى الأندلس (موطَّأ مالك)، وقيل إنّ أول من أدخله الأندلس (زياد بن عبد

(١) عمر رضا كحالة: التاريخ والجغرافية في العصور الإسلامية، ص ٤٩- ٥٠.

الرحمن اللخمي، ت ١٩٩هـ/ ٨٠٤م) المعروف بـ (شبطون)، وأدخل زياد (موطأ مالك) مكملًا متقنًا، فأخذه عنه (يحيى بن يحيى الليثي، ت ٢٣٤هـ/ ٨٤٨م)، الذي نشر المذهب المالكي، وكان (أبو علي القالي) ممن حملوا إلى الأندلس تراثًا مذكورًا في الشعر والأدب، ومما حمله معه من المشرق دواوين: (امرئ القيس، وزهير، والنابغة، والخنساء، والأخطل، وجرير، والفرزدق، وغيرهم) هذا بالإضافة إلى كتب الأخبار واللغة، ولما عاد (فرج بن سلام) من العراق جلب معه كتاب (البيان والتبين)، وغيره من مؤلفات الجاحظ، وأدخل (قاسم بن ثابت العوفي السرقسطي) إلى الأندلس كتاب (العين) للنحوي المشهور (الخليل بن أحمد الفراهيدي)، واشتهر (هشام بن عمر بن محمد بن أصبغ الأموي) بجلب الكتب من المشرق، وقد جلب عند عودته من رحلته من المشرق كتبًا كثيرة حِسانًا، وفي عصر ملوك الطوائف دخل الأندلس أحد العلماء التجار العراقيين وبرفقته نسخة من كتاب (القانون في الطب) لـ (ابن سينا)، وكان التاجر المذكور قد حرص على أن تكون هذه النسخة جميلة الخط، زاهية التجليد، وهكذا لم تنقطع هجرة الكتب المشرقية في شتى العلوم، وهاجرت إلى الأندلس أيضًا كتب: (الفارابي، وديوان المتنبي، ومقامات الحريري، ورسائل البديع والخوارزمي، وغيرهم)[١].

أشهر الكتب الأندلسية التي دخلت إلى المشرق: أما فيما يتعلق بانتقال الكتب بواسطة التجار من الأندلس إلى المشرق، فأنه يمكن القول: إن المصنفات العلمية لمشاهير علماء الأندلس من أمثال (ابن عبد ربه) صاحب كتاب (العقد الفريد)، و(ابن حزم) صاحب كتاب (طوق الحمامة)، والشاعر (محمد بن هانئ الأزدي) صاحب القصائد الشعرية المشهورة، والطبيب المشهور (خلف بن عباس الزهرواي) صاحب الموسوعة الطبية المشهورة (التصريف لمن عجز عن التأليف) كانت تصل إلى المشرق، وكانت معروفة ومتداولة بين أهل الأدب وطلاب العلم

(١) عبد الرحمن علي الحجي: التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة ص ٢٠٦ – ٢٠٩.

في العراق، وفارس، وعمان، ومما يدل على ذلك ما أشار إليه (أبو حيان) حيث يروي عن (طاهر بن عبد العزيز) قوله: "حملت مع نفسي جزءًا من مسند (أبي عبد الرحمن بقي بن مخلد) إلى المشرق، فأريته (محمد بن إسماعيل الصائغ) فقال: "ما اغترف هذا إلا من بحر علم"، ونخلص من كل هذا بالقول: إن تجارة الكتب شكلت خلال هذه الفترة مادة رئيسة في ميزان التبادل التجاري بين منطقة المشرق وبلاد الأندلس[1]، وأن التواصل الثقافي بين المشرق والأندلس كان أثر كبير في ازدهار الحركة العلمية وتنشيطها، وأن الرحلات العلمية كانت أهم جسر للتواصل، كما كانت تجارة الكتب في الأندلس أحد مظاهر التواصل، وإليها يعود الفضل في اتساع التبادل الفكري بين المشرق والأندلس، ومن أثر ذلك توسّع الثقافة بين الشعب الأندلسي، فقد انتشر العلم في الأندلس، وتألّق بعض العلماء الأندلسيين، وصنفوا مصنفات قيّمة، وقد جنت الحضارة الأندلسية ثمار ذلك التواصل على نطاق واسع، فانعكس على النضج العلمي واكتمل نمو الشخصية العلمية للأندلس، وكوّن علماء نابغين، فأُرسلت إلى الأندلس بعثات ذات طابع رسمي من حكومات بعض الدول الأوربية، وأخذت هذه البعثات تتوالى على الأندلس بأعداد متزايدة سنة بعد أخرى، حتى بلغت (سنة ٣١٢هـ/٩٢٤م) في عهد الخليفة (الناصر) زهاء سبع مائة طالب وطالبة، وكانت إحدى هذه البعثات من ألمانيا، ففي سنة ٣١٣هـ/٩٢٥م أرسل ملك ألمانيا (أوتو الكبير) الراهب (جون) إلى قرطبة مبعوثًا إلى الخليفة (عبد الرحمن الناصر)، وأثناء مكوثه فيها لمدة ثلاث سنوات تعلم العلوم والثقافة العربية، وحمل معه المخطوطات العلمية العربية، وتوجهت بعثة من فرنسا برئاسة الأميرة (إليزابيث)، ابنة خال الملك (لويس السادس) ملك فرنسا، وبعث (فيليب) ملك بافاريا إلى الخليفة (هشام المؤيد ٣٦٦ – ٣٩٩هـ/٩٧٦-١٠٠٩م) بكتاب يطلب منه أن يأذن له بإرسال بعثة من بلاده إلى الأندلس؛ للاطلاع على مظاهر التقدم الحضاري

(١) سعد عبد الله البشري: الحياة العلمية في عصر ملوك الطوائف في الأندلس، ص ١٩٢.

فيها، والاستفادة منها، فوافق الخليفة هشام، وجاءت بعثة هذه الملك برئاسة وزيره المدعو (ويلميين) الذي يسميه العرب (وليم الأمين)، وقد تألفت هذه البعثة من (٢١٥) طالبًا وطالبة وزعوا على جميع معاهد الأندلس؛ لينهلوا من مواردها الثقافية، وتذكر الروايات: أن ثمانية من أفراد هذه البعثة اعتنقوا الدين الإسلامي، ومكثوا في الأندلس، ورفضوا العودة إلى بلادهم، ومن ضمن هؤلاء الثمانية ثلاث فتيات تزوجن بمشاهير من رجال الأندلس في ذلك الوقت، وأنجبن عددًا من العلماء، كان منهم عباس بن مرداس الفلكي(١).

وسار ملوكٌ آخرون من أوربا على هذا النهج، فقد أوفد ملك (ويلز) بعثة برئاسة ابنة أخيه كانت تضم ثمانية عشرة فتاة من بنات الأشراف والأعيان، وقد وصلت هذه البعثة مدينة إشبيلية برفقة النبيل (سفيلك) رئيس موظفي القصر في (ويلز)، الذي حمل رسالة من ملكه إلى الخليفة (هشام المعتد بالله) الذي خلع عام ٤٢٢هـ/١٠٣٠م، وكان هدف هذه البعثة كما تقول الرسالة: "فقد سمعنا عن الرقي العظيم الذي تتمتع بفيضه الصافي معاهد العلم والصناعات في بلادكم العامرة، فأردنا لأبنائنا اقتباس نماذج هذه الفضائل؛ لتكون بداية حسنة في اقتفاء أثركم لنشر أنوار العلم في بلادنا التي يسودها الجهل من أربعة أركان"، وقد استقبل خليفة الأندلس البعثة أحسن استقبال، ورد على رسالة ملك (ويلز)، وقد حظيت هذه البعثة باهتمام رجال الدولة الذين قرروا أن يتم الإنفاق على هذه البعثة من بيت مال المسلمين(٢).

وفي الوقت نفسه قام بعض ملوك أوربا باستقدام علماء الأندلس؛ لتأسيس المدارس ونشر ألوية العلم والعمران، ففي القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي وما بعده وقعت حكومات هولندا، وسكسونيا، وإنجلترا على عقود مع حوالي تسعين

---

(١) عبد الله أنيس الطباع: القطوف اليانعة من ثمار جنّة الأندلس الإسلامي الدّانية، ص ١٥٠-١٥٥.

(٢) محمد، أحمد الأندلس من السقوط إلى محاكم التفتيش، المنهل، ص، ٦:٧.

من الأساتذة العرب في الأندلس بمختلف العلوم، وقد اختيروا من بين أشهر العلماء الذين كانوا يحسنون اللغتين: الإسبانية، واللاتينية، إلى جانب اللغة العربية، ووقعت تلك الحكومات عقودًا أخرى مع حوالي مائتي خبير عربي في مختلف الصناعات، لاسيما إنشاء السفن، وصناعة النسيج والزجاج، والبناء، وفنون الزراعة.

ولقد أقام بعض المهندسين العرب أكبر جسر على نهر (التايمس) في إنجلترا عرف باسم (جسر هليشم Helichem)، وكذلك كان المهندسون العرب هم الذين شيدوا قباب الكنائس في بافاريا، ولا تزال توجد بإحدى المدن الألمانية (شتوتغارت) حتى اليوم سقاية ماء تدعى (أميديو Amedeo) وهو تحريف لكلمة أحمد المهندس العربي الذي بناها[1].

كما أقاموا خزائن المدونات في أديرة إسبانيا، لاسيما (دير سانتا ماريا دي ريبول) الذي اقتنى بين القرنين السادس والسابع الهجري/ الثاني عشر والثالث عشر الميلادي أعدادًا كبيرة من المؤلفات العلمية العربية؛ لترجمتها من قبل رهبان الدير الذي انحدر العديد منهم من أصل مستعرب، المستعربون الذين كانوا يمثلون عنصرًا فعالًا في الحياة الأندلسية، في نقل الحضارة العربية إلى إسبانيا النصرانية، فالعصور الوسطى الإسبانية لم تكن تعرف الانفصال الجغرافي ولا العنصري بين المسلمين والنصارى؛ حيث كانوا متعايشين سوية بروح التسامح، والمستعربون بحكم معرفتهم اللغتين: العربية واللاتينية الحديثة كانوا أداة اتصال بين شطري إسبانيا، وهم منذ الفتح العربي الإسلامي لم ينقطعوا عن الهجرة إلى المناطق الشمالية في إسبانيا حيث إخوانهم النصارى، وقد ازدادت هجرتهم في القرن السادس والسابع الهجري/ الثاني عشر والثالث عشر الميلادي على عهد دولتي المرابطين والموحدين، فقد هاجر سكان (بلنسية) منها إلى (قشتالة) في عام (٤٩٦هـ/١١٠٢م)، وخرجت طائفة كبيرة من غرناطة مع جيش (الفونسو الأول)

(١) ابن بشكوال: الصلة، ص ٤٨٥.

المحارب ملك (أرغونة) عام٥١٩هـ/١١٢٥م، كما خرجت طائفة أخرى من (إشبيلية) إلى (قشتالة) عام٥٤١هـ/١١٤٦م، وقد كان شأن هذه الهجرات وأمثالها انتشار الثقافة الإسلامية العربية بين نصارى الشمال الإسباني(١).

(١) عبد الله أنيس الطباع: القطوف اليانعة من ثمار جنّة الأندلس الإسلامي الدّانية، ص ١٦٨.

المحور الرابع: الثقافة والعلاقات التجارية للأندلس مع الشرق

كان هناك دور محوري للتجار والعلاقات التجارية المتواصلة بين الأندلس والشرق، فالتجار المسلمون ظلوا قرونًا يتاجرون مع الكثير من البلدان الأوربية، وقد دلت التنقيبات أخيرًا على وجود عملات إسلامية في أوربا الشمالية حتى فلندا، كما أن الرحالة المسلمون الذين طافوا في مختلف أنحاء العالم – ومنها أوربا – كان لهم أثر في نشر الحضارة العربية الإسلامية، ثم فيما نتج عن رحلاتهم من تراث جغرافي أو كتابات تخص تلك الشعوب والأقطار التي زاروها، كرحلة (ابن فضلان، وأبو عبيد البكري)[1].

كذلك كان للتقارب السياسي والعلاقات الدبلوماسية دور كبير؛ حيث سعت العديد من الدول الأوربية إلى توطيد العلاقات مع الدول العربية الإسلامية في الأندلس، لاسيما في عهد الخليفة (عبد الرحمن الناصر)، الذي اجتمعت في شخصه مواهب عدة أهلته أن يكون حاكمًا ناجحًا، فهو سياسي مرن وقائد شجاع وإداري صلب، تمكن من خلق نظام قوي ومتين داخل الأندلس، وتحقيق سمعة سياسية في الخارج، أهلته ليكون موضع إعجاب وتقدير من الشخصيات المعاصرة له، التي سعت إلى صداقته، وإقامة علاقات ودية معه، وكانت الدولة البيزنطية في مقدمة الدول الساعية إلى توطيد العلاقات مع الأندلس، وقد عاصر الخليفة الناصر من أباطرة بيزنطة الإمبراطور (قسطنطين السابع) المشهور عنه اهتمامه بالعلوم والآداب وكتب الأقدمين، وقد وصلت سفارتان من الدول البيزنطية إلى الأندلس ،كانت الأولى (سنة ٣٣٦هـ/٩٤٧م) حيث بالغ (الناصر) في تزيين بلاطه والاحتفال بالسفراء، ورافقت هذه السفارة في طريق العودة بعثة من قبل الدول العربية في الأندلس، كان على رأسها (هشام بن هذيل) يحمل جوابًا من خليفته الناصر يؤكد على توثيق العلاقات بين البلدين، وقد استغرقت سفارة (ابن هذيل)

(١)عبد الله أنيس الطباع: القطوف اليانعة من ثمار جنّة الأندلس الإسلامي الدّانية ، ص ١٧٣.

قرابة السنتين عاد بعدها إلى الأندلس وقيل: إنه عاد صحبة سفارة ثانية سنة (٣٣٨هـ/٩٤٩م) للإمبراطورية البيزنطية استُقبلت بمثل حفاوة ما استُقبلت به السفارة الأولى(١).

روافد الثقافة الأندلسية: أقبل أهل الأندلس على تعلّم القرآن الكريم وعلومه، والسنة النبوية وشروحها، وحفظ الأشعار العربية وروايتها، ما جعل الأندلس تزخر بحركة علمية واسعة، فقلّ الجهل بينهم، وفشا العلم فيهم، يقول (المقري) عن أهل الأندلس: "وأمَّا حال أهل الأندلس في فنون العلم، فتحقيق الإنصاف في شأنهم في هذا الباب أنَّهم أحرص الناس على التمييز، فالجاهل الذي لم يوفقّه الله للعلم بجهد أن يتميز بصنعة، ويربأ بنفسه أن يُرى فارغًا عالةً على النّاس؛ لأنَّ هذا عندهم في نهاية القبح، والعالم عندهم معظم من الخاصة والعامة، يُشار إليه، ويحال عليه، وينبه قدره، ويعظم عند الناس، ويكرم في جوار أو ابتياع حاجة، وما أشبه ذلك، فالعالم عندهم بارع؛ لأنَّه يطلب ذلك العلم بباعث من نفسه، يحمله على أن يترك الشغل الذي يستفيد منه، وينفق من عنده حتى يعلم"، ولذلك أُسست بمساجد الأندلس مدارس لطلبة العلم في كل من: قرطبة، واشبيلية، وغيرهما من مدن الأندلس، وهو ما ساعد على تقبل روافد الثقافة المشرقية(٢).

أما روافد هذه الثقافة فتتبع ممّا قدّمنا به عن تاريخ الأندلس من حيث دخول العرب المسلمين إليها، وتثبيت أسس قامت عليها حضارة لعرب المسلمين هناك، وهذه الأسس هي: الدين الإسلامي، اللغة العربية، والعلوم والمعارف المنطلقة من هذين المصدرين، وما روى من أشعار العرب، ومأثور أقوالهم وحكمهم المنثور، وعلى ضوء هذه الأسس يمكن تحديد روافد الثقافة الأندلسية فيما يلي:

الرافد الأول: الفتح الإسلامي وما تبعه من دخول تلك القبائل العربية التي هاجرت إلى الأندلس، فانتشرت في المدن الكبرى، أمثال: قرطبة، وإشبيلية،

---

(١) خليل إبراهيم السامرائي، وآخرون: تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، ص ٣٣٦.

(٢) إبراهيم بيضون، الدولة العربية في إسبانيا، ص ٨٩.

والبيرة، وغيرها، ودخول أولئك النفر القليل من التابعين الذين ذكرهم (عبد الواحد المراكشي) في (المعجب)، وذكرهم صاحب (نفح الطيب).

الرافد الثاني: (استعداد أهل الأندلس لقبول الثقافة الإسلامية)، وصف (ابن غالب) في كتاب (فرحة الأنفس) الأندلسيين، فقال عنهم: "أهل الأندلس عرب في الأنساب والعزة، والأنفة، وعلو الهمم، وفصاحة الألسن، وطيب النفوس، وإباء الضيم، وقلة احتمال الذل، والسماحة بما في أيديهم، والنزاهة عن الخضوع، وإتيان الدنية، هنديون في إفراط عنايتهم بالعلوم وحبهم، وضبطهم لها، وروايتهم، بغداديون في نظافتهم وظرفهم، ورقة أخلاقهم ونباهتهم، وذكائهم، وحسن نظرهم، وجودة قرائحهم، ولطافة أذهانهم، وحدّة أفكارهم، ونفوذ خواطره".

ولذلك اشتهرت بعض الأسر الأندلسية ذات الأصول المشرقية بالأدب والشعر، أمثال (أسرة آل سعيد) التي تعود في أصلها إلى (عبد الله بن سعد بن عمار بن ياسر)، ذكره (المقري) في الداخلين إلى الأندلس من المشرق، وقال: إنَّه: "جد بني سعيد أصحاب القلعة، الذين منهم عدّة رؤساء، وأمراء وكتّاب، وشعراء، ومنهم (ابن سعيد) صاحب (المغرب)، وغير واحدٍ ممن عرفنا بهم في هذا الكتاب، ومن مشاهيرهم (أبو بكر محمد بن سعيد بن خلف)، صاحب أعمال غرناطة في مدة الملثمين"[1].

الرافد الثالث: (الشعراء الذين برزوا في الأندلس منذ الفتح) في بداية فتح الأندلس لم يكن ثمة شعراء ولا كتّاب من أهلها، وأغلب الشعراء من الذين انتقلوا إلى الأندلس في أثناء الفتح وبعده، حيث كان الشعراء يحضون الفرسان بشعرهم على الجهاد، ويثيرون الحماسة في صدورهم عند ركوب الأهوال.

وكان بعض ولاة الأندلس شعراء عبّروا بأشعارهم عن انتصاراتهم أو البأس الذي تعرضوا له، ومن هؤلاء الشعراء: (أبو الخطّار الكلبي)، الذي كان شعره

(١) لسان الدين ابن الخطيب: الإحاطة في تاريخ غرناطة، (ت٧٧٦هـ) ص ٢٠٠ – ٢٠١.

النابض بالحماسة والشجاعة، المصور لمواقف الظلم التي تعرض لها وقومه عاملًا مهمًا في عوامل توليه الولاية، فقد بعث أبياتًا معدودة إلى الخليفة يبيّن فيها الظلم الذي تعرضوا له من القيسيين في (مرج راهط)، وهذا الشاعر كان فارسًا؛ ولذلك لُقّب بعنترة الأندلس، وكان كثير الفخر في شعره، ولا شكّ أن شعره قد أثّر على نحو لا بأس به في الحياة الأدبية بالأندلس، وقد وجد أيضًا في هذه الفترة شاعر مشهور ينسج على مذهب الأوائل، هو (أبو الأجرب جعونة بن الصمة الكلابي)، وهو من (واضعي أسس الموروث الشعري في الأندلس)، وقد امتدحه (أبو محمد بن حزم) في رسالته (فضائل أهل الأندلس) الواردة في نفح الطيب بقوله: "ونحن إذا ذكرنا "أبا الأجرب جعونة بن الصمة الكلابي" لم نُبَاهِ به إلا "جريرًا والفرزدق"؛ لكونه في عصرهما، ولو أُنصف لاستُشهد بشعره، فهو جار على مذهب الأوائل لا على مذهب المحدثين"، فهذان الشاعران كانا في عصر الولاة، وهناك شعراء غيرهما(١).

وللأدب والشعر النصيب الأكبر في تأثر حضارة الأندلس بحضارة الشرق نبينها كالتالي:

– **انتشار الأدب الأندلسي إلى الشرق:** كان له تأثير عميق على تطور الأدب العربي بشكل عام، فقد كانت الأندلس أو إسبانيا الإسلامية نقطة ازدهار ثقافي وحضاري؛ حيث امتزجت التقاليد العربية مع التأثيرات الأوروبية والإفريقية، ما أفرز تنوعًا كبيرًا في الأدب والفنون، وعندما نتحدث عن انتشار الأدب الأندلسي إلى الشرق، فإننا نتحدث عن جملة من التأثيرات والتطورات التي أثرت على الأدب العربي، إليك بعض الجوانب التي توضح هذا الانتشار(٢):

–**انتقال الشعر الأندلسي إلى المشرق العربي**: الشعر الأندلسي – وخاصة الموشحات– كان أحد الأشكال الأدبية التي انتشرت من الأندلس إلى المشرق

(١) إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة) ص ٨٥.

(٢) محمد مجيد السعيد، الشعر في عهد المرابطين والموحدين: ص ٣٨٩–٣٩٥.

العربي، فقد كانت الموشحات شكلًا شعريًا مبتكرًا يختلف عن الشعر التقليدي بسبب استخدام الأوزان والإيقاعات المتنوعة، بالإضافة إلى دمج اللهجة العامية مع اللغة الفصحى، وقد بدأ الشعراء في المشرق بتبني هذا الشكل الشعري، ما أثرى المشهد الأدبي في العالم العربي(١).

-**تأثير الأندلس على الأدب والفن في شمال إفريقيا**: بسبب القرب الجغرافي تأثر الأدب في شمال إفريقيا بشكل مباشر بالأدب الأندلسي، هذا التأثير شمل ليس فقط الشعر، بل شمل الموسيقى والفنون التشكيلية، حيث انتقلت العديد من الأنماط الأدبية والموسيقية من الأندلس إلى دول مثل: المغرب وتونس والجزائر، وأصبحت جزءًا من التراث الثقافي لهذه الدول(٢).

-**انتقال العلماء والمفكرين من الأندلس إلى الشرق**: خلال فترات معينة من التاريخ – خاصة بعد سقوط الأندلس– هاجر العديد من العلماء والمفكرين والشعراء من الأندلس إلى مناطق أخرى في العالم الإسلامي، مثل: مصر والشام والعراق، هذا الانتقال أدى إلى انتشار الأفكار والأعمال الأدبية الأندلسية في المشرق، حيث أثر هؤلاء المهاجرون على المشهد الثقيل بتجاربهم ومعارفهم.

-**تأثير الفلسفة الأندلسية على الفكر الشرقي**: كانت الأندلس مركزًا للفلسفة والعلم مع فلاسفة مثل: (ابن رشد)، و(أفيرويس) وغيرهما، الذين لعبوا دورًا رئيسًا في الفكر الفلسفي الإسلامي، فنقلت أعمال هؤلاء الفلاسفة إلى المشرق، فأثَّروا في الفكر الفلسفي والعلمي في مناطق مثل: بغداد، ودمشق، والقاهرة.

-**انتشار الأعمال الأدبية الأندلسية عبر التجارة والتبادل الثقافي**: بفضل التجارة والتبادل الثقافي بين الأندلس والمشرق انتشرت الكتب والأعمال الأدبية

(١) إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة) ص ٨٨.

(٢) المرجع السابق، ص ٩٠.

والفنية بين المنطقتين، ما أدى إلى تبادل الأفكار والأنماط الأدبية؛ حيث تأثر الأدب العربي في المشرق بالعناصر الأندلسية الفريدة(١).

وفي المجمل فإن انتشار الأدب الأندلسي إلى الشرق كان عملية ثرية متعددة الأوجه، أسهمت في إثراء الأدب العربي وتنوعه من خلال انتقال الشعراء والعلماء، وانتشار الأعمال الأدبية، والتبادل الثقافي، أثرت الأندلس بشكل كبير على المشهد الأدبي والفني في العالم العربي.

-**انتشار الشعر الأندلسي إلى الشرق:** انتشار الشعر الأندلسي إلى الشرق كان له تأثير كبير على الأدب العربي، فقد كان الشعر الأندلسي مميزًا عن غيره من أشكال الشعر العربي من حيث الشكل والمضمون والأسلوب، وترك بصمة قوية في العالم العربي، خاصة في مجال الموشحات والزجل، **وفيما يلي بعض الجوانب التي أسهمت في انتشار الشعر الأندلسي إلى الشرق:**

- **إبداع الموشحات والزجل:** الموشحات والزجل هما أبرز الأشكال الشعرية التي تطورت في الأندلس، فالموشحات تتميز بهيكلها المختلف عن القصائد التقليدية مع استخدام القافية المتنوعة والمقطوعات، إضافةً إلى استخدام اللغة العامية جنبًا إلى جنب مع الفصحى، هذا النوع من الشعر جذب الكثير من الاهتمام، وأصبح محبوبًا في المشرق، خاصة في مناطق مثل: مصر والشام.
- **انتقال الشعراء الأندلسيين إلى الشرق:** بعد سقوط الأندلس هاجر العديد من الشعراء والمفكرين الأندلسيين إلى مناطق مختلفة من العالم الإسلامي، حاملين معهم تراثهم الثقافي والأدبي، هؤلاء الشعراء نقلوا تقاليد الشعر الأندلسي وأساليبه إلى المشرق، حيث تفاعلوا مع الشعراء المحليين وأثَّروا فيهم(٢).
- **التبادل الثقافي والتجاري:** كانت الأندلس مركزًا تجاريًا وثقافيًا مهمًا، وكان هناك تبادل مستمر بين الأندلس والمشرق، هذا التبادل أسهم في نقل الشعر الأندلسي

---

(١) محمد مجيد السعيد: الشعر في عهد المرابطين والموحدين: ص ٤٠١-٤٠٣.

(٢) زكريا هاشم: فضل الحضارة الإسلامية والعربية على العالم، ص ٢٨٨.

وطرقه وأساليبه إلى الشرق، حيث أصبحت الموشحات والزجل جزءًا من التراث الشعري في مناطق أخرى كثيرة.

●**التأثير في الموسيقى والفنون**: كان الشعر الأندلسي وثيق الارتباط بالموسيقى، حيث كانت الموشحات غالبًا ما تُغنى مع مرافقة موسيقية، هذا الارتباط بين الشعر والموسيقى جعل الشعر الأندلسي جذابًا سهل الانتشار، حيث وجد له مكانٌ في الفنون الموسيقية في المشرق، على سبيل المثال: تأثر الفن الموسيقي في المغرب العربي ومصر والشام بالشعر الأندلسي.

●**إسهام الأدب الأندلسي في تجديد الشعر العربي**: أدى الشعر الأندلسي إلى تجديد في الأشكال الشعرية واللغة والأسلوب، ومع تنوع الموشحات والزجل اكتسب الشعر العربي في المشرق نكهة جديدة؛ حيث تأثر الشعراء بأساليب التعبير واللغة المتنوعة، ونتيجةً لذلك أصبح الشعر الأندلسي جزءًا لا يتجزأ من الأدب العربي الأوسع.

●**بروز شعراء شرقيين بتأثير أندلسي**: بعد انتشار الشعر الأندلسي ظهر شعراء شرقيون تأثروا بهذا التراث، وبدأوا في استخدام أنماط مشابهة، مثل: الموشحات، والزجل، هؤلاء الشعراء أسهموا في استمرار هذا التراث الأندلسي، وجعلوه جزءًا من الأدب العربي في المشرق[1]، وباختصار فإن انتشار الشعر الأندلسي في الشرق كان نتيجة لعوامل متعددة، منها: التبادل الثقافي، والهجرة، وتأثير الشعراء الأندلسيين، إضافةً إلى الإبداع والتجديد في الأشكال الشعرية، هذا الانتشار كان له تأثير طويل الأمد على الأدب العربي، كما أنه أثرى التجربة الشعرية في العالم العربي.

●**شعراء شرقيين بتأثير أندلسي:** التأثير الأندلسي في الشعر العربي الشرقي كان واضحًا، خاصة في جوانب مثل: الموشحات، والزجل؛ حيث امتزجت هذه

(١) زكريا هاشم: فضل الحضارة الإسلامية والعربية على العالم، ص ٢٩٠ – ٢٩١.

الأنماط الشعرية الأندلسية مع الأنماط التقليدية في الشرق الأوسط، ما أدى إلى ظهور شعراء شرقيين بتأثير أندلسي، وهناك بعض الشعراء الشرقيين الذين تأثروا بالأدب الأندلسي أو استلهموا منه(١).

●**شعراء العصر المملوكي**: شهد العصر المملوكي – خاصة في مصر– ظهور الموشحات كجزء من الأدب العربي الشرقي، حيث تأثر الشعراء في هذا العصر بالتراث الأندلسي، ونشأت العديد من الموشحات التي تتبنى الأسلوب نفسه، بما في ذلك استخدام القافية المتعددة، والموسيقى، والأنماط المتنوعة، مثل: (ابن سناء الملك، وشهاب الدين أحمد بن الفارض، وغيرهم) ممن تأثروا بهذه الأنماط، وتضمن شعرهم جوانب من التأثير الأندلسي.

●**شعراء العصر العثماني**: في العصر العثماني استمر ظهور تأثير الأدب الأندلسي في الأدب العربي الشرقي، وكان الشعراء في مصر وبلاد الشام يستلهمون الموشحات والزجل الأندلسي، مثل: (عبد الغني النابلسي) الذي استخدم الأنماط الموسيقية في شعره،

●**شعراء العصر الحديث**: في العصر الحديث، بدأ شعراء مثل (أحمد شوقي) في تبني بعض الأنماط المستوحاة من الأدب الأندلسي، خاصة في القصائد التي تحتوي على مزيج من الأنماط التقليدية والموشحات، فقد كانت الموشحات جزءًا من التراث الأدبي الذي اعتمد عليه الشعراء لإحياء الشعر العربي وإعادة تعريفه.

●**تأثير الأندلس في الأغاني والموسيقى**: الأغاني والموسيقى في مصر وبلاد الشام كانت لها علاقة وثيقة بالشعر، وكان التأثير الأندلسي حاضرًا في الأغاني المستوحاة من الموشحات، فشعراء وموسيقيون مثل: (سيد درويش، ومحمد عبد الوهاب) استخدموا الموشحات والأغاني المستوحاة من التراث الأندلسي، ما أثر على الأغاني والشعر في العالم العربي.

---

(١) إبراهيم بيضون، الدولة العربية في إسبانيا، ص ٩٦-٩٧.

هذه بعض الأمثلة على الشعراء الشرقيين الذين تأثروا بـــالأدب الأندلســـي، حيث تجدر الإشارة إلى أن التأثير الأندلسي كان واسع النطاق، وظهر في مجموعة متنوعة من الأشكال الشعرية والأدبية، ما ساعد في تشكيل هوية الشـــعر العربـــي الشرقي وإثرائه بأفكار وأساليب جديدة.

نتائج البحث ومناقشته:

وفق ما تم عرضه في الدراسة يظهر جليًّا أن هناك صلة بين الأندلس والمشرق ثقافيًا وعلميًا حيث:

– كان شعراء الأندلس يشعرون أن أصولهم من المشرق وصلتهم لم تنقطع معها لا ثقافيًا ولا علميًا كالتالي:

– العلاقة بين الأندلس والمشرق كانت ذات أهمية كبيرة ثقافيًا وعلميًا خلال فترة العصور الوسطى، حيث كانت الأندلس (جنوب إسبانيا الحالية) تشكل جزءًا من الإمبراطورية الإسلامية العربية التي استمرت مئات السنين، خلال هذه الفترة ازدهرت الثقافة الإسلامية والعلمية في الأندلس، حتى صارت مركزًا رئيسًا للتقدم العلمي والثقافي في أوروبا.

– من الناحية الثقافية كانت الأندلس مكاناً للتبادل الثقافي والحوار بين العرب والمسلمين والمسيحيين واليهود، وتميزت هذه الفترة بالانفتاح الثقافي والتعايش السلمي بين مختلف الطوائف الدينية والثقافية.

– من الناحية العلمية أسهمت الأندلس في نقل وترجمة المعارف من الحضارات القديمة، مثل: اليونان والهند وبابل إلى العالم الإسلامي، ومن ثم إلى أوروبا، وقد أسهمت هذه الجهود في تطور العلوم والفلسفة والطب والرياضيات والفنون في الأندلس.

– كانت هناك علاقات وثيقة بين الأندلس والمشرق الإسلامي، وكان هناك تبادل للمعرفة والمؤلفات بين العلماء والفلاسفة في كل منطقة، على سبيل المثال: انتقلت الأفكار الفلسفية والعلمية لعلماء المشرق مثل: (ابن سينا، والخوارزمي) إلى الأندلس، وكذلك انتقلت مؤلفات العلماء الأندلسيين إلى المشرق.

– كان للعلاقة بين الأندلس والمشرق دور مهم في تطوير الحضارة الإسلامية ونقل المعرفة الإسلامية والعلمية إلى أوروبا والعالم بشكل عام.

توصيات البحث:

– توسيع نطاق الزمان: قد تكون هناك قيمة في توسيع نطاق الزمان ليشمل فترات زمنية مختلفة في تاريخ الأندلس، ما يساعد في فهم التطورات الثقافية والاجتماعية على مر العصور.

– تعميق التحليل اللغوي: تعزيز توصيل تأثير اللغة الأندلسية وأثرها على أسلوب الكتابة للمسافرين وكتّاب الرحلات.

– استخدام الحقل الميدان: إضافة عنصر البحث في الميدان يمكن أن يكون قيمة، سواء من خلال زيارة المواقع التاريخية في الأندلس أو إجراء مقابلات مع خبراء في المجال.

– استكشاف أفق الأدب الرحلاتي: بتوسيع فهم الأدب الرحلاتي والتركيز على المفاهيم والأساليب التي يمكن أن تكون لها تأثير على الكتّاب والمسافرين.

– تفصيل أعمال أدبية محددة: تحديد أعمال أدبية معينة كتبتها مسافرون في الأندلس والقيام بتحليلها بشكل أعمق.

– استكشاف التأثيرات الثقافية والاجتماعية: دراسة تأثيرات الأندلس على المسافرين من الناحية الثقافية والاجتماعية، وكيف أثرت هذه التأثيرات على مضمون وأسلوب أعمالهم الأدبية.

– تحقيق التوازن في التحليل: تحقق من أن التحليل يحقق توازناً بين مختلف الجوانب الثقافية والتأثيرات الأدبية.

– استخدام المقارنة: استخدم المقارنة بين مسافرين مختلفين أو أعمال أدبية مختلفة لزيادة الفهم وتحليل التفاوتات.

– التركيز على التنوع الديني: كيف يمكن أن يكون التأثير الديني جزءًا مهمًا من الرحلات والأعمال الأدبية.

– استنتاجات نقدية: توجيه انتقادات بناءة، وتحليل نقدي للدراسات السابقة، يظهر الاستفادة من الأدبيات الموجودة.

أهم المصادر والمراجع:

- ابن الخطيب، لسان الدين الإحاطة في تاريخ غرناطة، (ت٧٧٦هـ)، نشر: محمد عبد الله عنان، مصر، سنة (١٩٥٦م).
- ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق عبد الله أنيس الطباع، بيروت ١٩٥٧.
- ابن بشكوال، أبو القاسم خلف بن عبد الملك (ت ٥٧٨هـ/ ١١٨٣م): الصلة في تاريخ علماء الأندلس، قدّم له وضبطه وشرحه د. صلاح الدين الهوّاري، الطبعة: الأولى صيدا ــ بيروت، المكتبة العصرية، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م.
- الأندلسي، ابن سعيد: المقرب من حلى المغرب، تحقيق شوقي ضيف – القاهرة سنة ١٩٦٤م.
- البشري، سعد عبد الله: الحياة العلمية في عصر الخلافة في الأندلس، المملكة العربية السعودية، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.
- البشري، سعد عبد الله: الحياة العلمية في عصر ملوك الطوائف في الأندلس، الرياض، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ١٩٩٣م.
- بيضون، إبراهيم: الدولة العربية في إسبانيا – بيروت – سنة ١٩٦٧م.
- بيضون، إبراهيم، الدولة العربية في اسبانيا، (بيروت:١٩٧٨).
- الحجي، عبد الرحمن علي: التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة، دمشق، الطبعة: الخامسة، دار القلم، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.
- السامرائي، خليل إبراهيم: دراسات في تاريخ الفكر العربي، الموصل، دار الكتب للطباعة والنشر، ١٩٨٦.
- السعيد، محمد مجيد (١٩٨٧): الشعر في عهد المرابطين والموحدين، الطبعة: الثانية، الناشر: بيروت: الدار العربية للموسوعات.
- الضبي، أحمد بن يحيى (٢٠١٥): غية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، ط١.

- الطباع، عبد الله أنيس: القطوف اليانعة من ثمار جنّة الأندلس الإسلامي الدّانية، الطبعة: الأولى، لبنان: بيروت، دار ابن زيدون، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.
- الطليطلي، صاعد، القاضي أبي قاسم ابن أحمد، (ت ٤٦٢هـ/١٠٧٠م): طبقات الأمم، مصر: القاهرة، مطبعة السعادة.
- عباس، إحسان، تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين، الطبعة: السادسة، لبنان: بيروت، دار الثقافة، ١٩٨١.
- عبد البديع، لطفي: الإسلام في إسبانيا ط سنة ١٩٦٩م.
- عبد البديع، لطفي: الإسلام في إسبانيا، الطبعة: الأولى، مصر: القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥٨م.
- الفَيّومي، محمد إبراهيم: تاريخ الفلسفة الإسلامية في المغرب والأندلس، الطبعة: الأولى، لبنان: بيروت، دار الجيل، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.
- القِفطي، جمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف (ت ٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م): إنباه الرُّواة على أنباه النّحاة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، (١٣٦٩هـ/ ١٩٥٠م).
- كحالة، عمر رضا: التاريخ والجغرافية في العصور الإسلامية، سوريا: دمشق، المطبعة التعاونية، (١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م).
- محمد، أحمد (٢٠١٢): الأندلس من السقوط إلى محاكم التفتيش، المنهل.
- المقري، أحمد بن محمد التلمساني (ت ١٠٤١هـ/ ١٦٣١م): نفح الطيب من غصن الأندلس الرّطيب ٨جـ، حققه: د. إحسان عباس، بيروت، دار صادر، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨.
- منجد، مصطفى: الأدب الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة.
- هاشم، زكريا: فضل الحضارة الإسلامية والعربية على العالم، مصر: القاهرة، دار نَهضة مصر للنشر، ١٩٧٠م.

فهرس الموضوعات

م	الموضوع	الصفحة
١-	ملخص	٧٤٠
٢-	Abstract	٧٤١
٣-	مقدّمة	٧٤٢
٤-	المحور الأول: الازدهار العلمي بين الأندلس والمشرق وأثره في الأندلس	٧٥٢
٥-	المحور الثاني: أثر المشرق الحضاري على الأندلس	٧٦٠
٦-	المحور الثالث: أثر الرحلات العلمية في ازدهار الحركة العلمية في الأندلس	٧٦٦
٧-	المحور الرابع: الثقافة والعلاقات التجارية للأندلس مع الشرق	٧٧٨
٨-	نتائج البحث ومناقشته:	٧٨٧
٩-	أهم المصادر والمراجع:	٧٨٩
١٠-	فهرس الموضوعات	٧٩١